رواية

جائزة كتاب العام في ليتوانيا

آلفيداس سليبيكاس

اسمي ماريتا

Mano Vardas Marytė

ترجمة: منير عليمي

صفحة 7

Mano vardas – Marytė

Alvydas Šlepikas

اسمي ماريتا

تأليف

آلفيداس سليبيكاس

ترجمة: منير عليمي

ينبعثُ كلّ شيء من الماضي كما لو كانَ كائنًا يتصاعدُ من حقلٍ يغطّيه الضّباب. كلّ الأحداث والشّخوص تلفّهم الثّلوجُ وتذروهم الرّياحُ عاليًا معَ الضّباب الذي يحوّمُ في صمتٍ. لقد تلاشى كلّ شيء ومعَ ذلكَ تقفُ الذّاكرة عاجزةً عن نسيانِ ما حدثَ. بعضُ التّفاصيل واضحة وبعضها ضائعٌ كمشهدٍ متآكل في صورة فوتوغرافيّة. يبدو الناس وكأنّهم يخرجون من ضباب كثيفٍ أو عاصفة ثلجيّة أو ضباب شتويٍّ، حيثُ ينمو الظلام، ويلقي بظلاله على الأرض الدّامية، ثمّ يختفونَ سريعًا. مشاهدُ مبعثرة تومضُ في الذّاكرة وترحلُ بسرعة كما لو أنّها علامات عابرة على مسار التّاريخ: هنا يعلّقُ ملصق يتراءى من الجانب الآخر من ضفّة نهر نيمان، كُتبت عليه كلمات روسيّة «**يا جنود الجيش الأحمر! أمامكم تنامُ مخابئ الفاشيّين**».

هنا الجنود الرّوس محمّلون بغنائمهم، السّاعات والسّتائر والأطباق الفضيّة. هنا جسد امرأة مقطوعة الرّأس مُسمَّرٌ على الحائط؛ هنا حشدٌ من النَّاس يتضوّرونَ جوعًا ويمزّقون جثّة امرأة كانت تحملُ كيسًا مليئًا بالماء؛ هنا أمٌّ مع أطفالها تسير مباشرة إلى نهر نيمانِ ثمّ تتدحرج مع كتلِ الجليد وتختفي في النّهر دون أن تنبس

بكلمةٍ ودونَ أدنى فكرة في رأسها، كما لو كانَ الغرق حدثًا يوميًّا وأمرًا في غاية البساطة. هنَا الجثث التي قذفها النّهرُ، مسودّة ومنتفخة، جثث بلا اسم وبلا لقب. هنَا تُحفرُ القبورُ، هنَا أنقاضُ الكنائس التي قُصِفت، هنا منشورات روسيّة تُسلَّم إلى الجنود السوفييت تأمرهم: «**اقتلوا جميع الألمان، اقتلوا أطفالهم أيضا. لا يوجد ألمان أبرياء. خذوا ممتلكاتهم، اسبوا نساءهم. هذا حقّكم، تلك غنائم الحرب**». هنا أمّهات يقايضن ويبعن بعض أطفالهنّ للمزارعين اللّيتوانيّين مقابل بعض البطاطا والدّقيق والغذاء، حتّى يتمكّن أطفالهنَّ الآخرون من النّجاة. هنا جنود يضحكون وهم في حالة سكر، يطلقون النار على الناس بمرح وبلا رحمة ودون تفكير، يطلقونَ النّارَ فقط من أجل المتعة. لقد زادتهم نار الحرب صلابة، كصلابةِ الطّين في الأفران العالية. هنا نساء يحفرن الخنادق ويمتن من الجوع والتّعبِ. وهنا ذئابٌ اعتادت على أكل اللّحم البشريّ. هنا كلبٌ يحملُ يدًا بشريّة سوداء بينَ أنيابهِ. هنا الجوعُ يحدّقُ بعينيهِ، هنَا المجاعة، المجاعة والمجاعة؛ هنا الجثث، الموت والجثث فحسب. هؤلاء الوافدون الجدد، المستعمرون، يدمّرون كلّ ما تبقّى – الكنائس، القلاع، المقابر، شبكات الصرف الصّحيّ وزرائب الحيوانات. هنا الحقول الفارغة والمقفرة، حيث تفقد الرياح طريقها، ولا تجد طريقًا مألوفةً واحدةً بين الأنقاض والنفايات البالية. هنا بروسيا بعد الحرب، تُداس بالأقدام، وتُغتصبُ وتقفُ أمام الحائط لتستقبلَ الرّصاص الذي سينامُ في روحها.

تلاشت شظايا الماضي واختفت، ثمّ تسرّبت من الظلام كما لو أنّها شخوص خياليّة أو فيلم بالأبيض والأسود. كان ذلكَ في شتاء 1946. شتاء بارد ورهيب يأتي مباشرة بعد الحرب ليفرضَ نفسهُ: الزمن المناسب للخراب. ثمّة جسر معلّق بين السماء والأرض يحوّمُ فوقَ نهر نيمان، حيثُ تعصفُ الرّياحُ محمّلةً بالثّلوج التي تخيّمُ فوقَ النهر وتنبسطُ كما لو كانت طريقًا سريعةً. كانَ الجليدُ ينتشرُ في بعض الأماكن كما لو أنّهُ رخام أبيض. أمّا الجوّ فقد كانَ باردًا، 20 درجة مئويّة تحت الصفر على الأقلّ. كانت هناك دعامات معدنيّة يتقاطع بعضها مع بعضٍ مثل شبكة مبهمة، تصفّرُ الريح من خلالها، حيثُ يعوي الجسر بأغاني العواصف وحيثُ تنبعثُ أغنية الجنديّ الغريبة وقد مُزجت بالرّياح التي تهبُّ من جهةِ الشرق. من خلال الدعامات المعدنيّة، يمكنك رؤية أجسامٍ داكنة تتحرّك على الجانب الآخر من النهر. على الجسر كانت هناك ملصقات وعلامات وصحف تعلن النصر، وتشجّع الجنود على القتل وعلى عدم إبداء أيّ رحمة، وتحذّرُ الجميعَ من خطرِ الدّخول دونَ تصريح من السلطات العسكريّة. كانت أطراف إحدى الملصقات متآكلة وترفرف في مهبّ الريح. نمت أغنية الحنينِ بصوتٍ أعلى. على

الجسر كان هناك حارسان: آسيويّ يغنّي وروسيٌّ. كان الروسيّ يحاول إنارة مصباحهِ ولكنّ الرّياحَ منعتهُ من ذلكَ وهذا ما جعلهُ يستعرُ غضبًا. غضب الجنديّ صاحب العينين الضّيقتين هو أيضًا. كانت النّقاط السوداء تقترب عبرَ النّهر، كانوا أطفالًا ألمانيّين يحاولون عبور نهر نيمان المتجمّد. حوالي سبعة أطفالٍ. لم يستطع الرّوس تحمّل الأمر بعد الآن. ابتسمَ الآسيويّ وهوَ يتمتمُ: «بحقّ الجحيم، أغلق فمكَ أيّها الأحمق». كانَ هادئًا للحظةٍ ثمَّ قالَ بصوتٍ خافتٍ: «أيّها الحمقى، أنتم حمقى». كانت الريح تصفّرُ، والوطن الأمّ قد أضحى بعيدًا، والمصباحُ قد تعطّل وأعوادُ الثّقاب قد كُسرت بين يدي الجنديّ القاسي.

ضحكَ الآسيويّ:

- هاي إيفان.

- اسمي ليس إيفان، اسمي يفغيني لكنّهم ينادونني زهينيا.

- انتبه إيفان، الأطفالُ الألمانُ يركضون.

كان الأطفال الألمان يركضون عبر الجليد كالحجلِ الطّائر. ثمّة طفلانِ يركضانِ خلف طفل صغير. صرخَ جنديٌّ روسيٌّ:

- توقّفوا! عودوا إلى الوراء! توقّفوا هذا أمر! توقّفوا أيّها الفاشيّون الأوغاد!

لكنّ الجسرَ كانَ عاليًا، فحجبت الرّياحُ صوت الحارس فواصلوا الرّكض. كانوا ينظرون إلى شخص يلوّح بذراعيه على الجسر،

لكنّهم لم يتمكّنوا من فهم لغة الجنديّ.

- هاي إيفان.

- اسمي ليسَ إيفان أيّها الأحمق.

- إنّهم يريدونَ منكَ أن تمتصّ أعضاءهم يا إيفان...

- سأقتلكَ.

- توقّف أيّها المجنون.

أخذ الرّوسيّ قنبلة يدويّة، وسحب الدبّوس ورماها على الأطفال. جثم كلا الجنديّين لتجنّب الشظايا وصدى الانفجار الذي دوّى كصاعقة رعدية في الهواء الجليديّ. تلاشى الدّخانُ. سقط أحد الأطفال في الجليد وظلَّ يكافح من أجل الخروج. كان الجوّ باردًا والرّذاذُ الجليديّ يتصاعدُ من الماء. كان الأطفال الآخرون يركضون محاولينَ الفرار من الموت.

تلاشى الضجيج، وللحظةٍ خيّمَ صمتٌ تامٌّ. ثمّ انبعث صوت غريب شبيه بصرخة وحشٍ يحتضرُ في صمتٍ، صرخة عالية وبلا نهاية. أصيبَ طفل آخر بجروح خطيرة. لقد سقط والتَوَتْ قدماه. ومثلما كانَ يحاولُ إخراجَ قدميه من الجليد، كان ذلكَ الصّراخُ يخرجُ من روحهِ. وبينما يتلوّى وينعطفُ، تسرّب الدم من تحته، ورسم مساحة أكبر من الثلج والجليد: كانت تلكَ الدّماء وصمة عارٍ في عالم أسود.

وقف صبيّ يبلغ من العمر ستّ سنوات، يأسرهُ الخوفُ حتّى الموت، بين الشخص المصاب والشخص الذي كان يحاول الخروج من الحفرة الجليديّة. بدا الأمرُ كما لو أنّهُ تحوّل إلى حجرٍ. لم يكن يتحكّمُ في ساقيه فسرى صراخهُ في كاملِ جسده. امتلأت عيناه بالذّعر. كان ذلك الشخص هو هانسيل الصّغير، سنتعرّف عليه لاحقًا.

رفع الآسيويّ بندقيّته وحدّدَ هدفهُ ثمّ أطلق النار. توقّف الصّراخ. لم يعد الطّفل المصاب قادرًا على الحركة. استيقظ هانسيل من ذهوله وبدأ يركض وهو يصرخ بشيءٍ مّا. لم يكن يركض في اتّجاه الشاطئ، بل على طول النّهر المتجمّد. تبعتهُ بضعُ طلقات، ولكنّهُ أكملَ الرّكضَ. هزّ رأسهُ بعد أن لحقهُ الجنديّ الآسيويّ. كان الطفل الآخر لا يزال يحاول الخروج من الحفرة الجليديّة، مستخدمًا كلّ ما تبقّى لهُ من قوّة. نظرَ الجنديّ الرّوسي إلى أسفل وحدّقَ في الطفل الصّغير تحته في النهر ثمّ بصقَ في وجهه.

كانوا لا يكادون يقاومون. اختفى رأس الطفل. كانت إحدى يديهِ لا تزال تمسك بالجليد ثمّ اختفت في النّهاية. تمكّن الجنديّ الروسيّ أخيرًا من إلقاء الضوء عليه. كانت الرّياح تصفّرُ. ومرّة أخرى، انبعثت أغنية حزينة مليئة بالوحشة.

اللّيلُ يقتربُ. لقد حلّ الشتّاءُ بسرعةٍ. بالنّسبة إلى إيفا، بدت الشهورُ القليلةُ الماضية ليلًا متواصلًا لا حدودَ لهُ. شتاءٌ بلا نهاية، عواصفُ ثلجيّة لا تنتهي، الصّقيعُ، الشّفق، البردُ والجوعُ الذي لا نهاية له. يتسرّبُ البردُ بين ملابسها ويغوصُ في قلبها، يتسرّبُ نحوَ عظامها وعقلها. بدأت إيفَا تشعرُ بالنّعاس نتيجة للجوع مرّة أخرى، لقد مضى وقتٌ طويل على آخر مرّة أكلت فيها. وكلّما وجدت رغيفًا سلّمتهُ إلى أبنائها. كان العالم ينقلبُ ولفترة من الزمن غطّت عينيها، لكنّ صديقتها مارثا، التي لم تستسلم مطلقًا، أمسكتها من مرفقها وقالت: «تمسّكي يا إيفا، تذكّري أطفالكِ».

لم تكن إيفا في حاجة إلى أن تتذكّرَ؛ كان الأطفال هم الشيء الوحيد الذي تفكّرُ فيه مونيكا، رينات، هيلموت المدلّل الذي كانَ لطيفًا جدًّا لكنّه ضعيف ومريض ومختلف عن ابنها هاينز. أين أنتَ الآن يا صديقي هاينز؟ لقد استقلّ القطار وانطلق إلى ليتوانيا قبل أسبوع تقريبًا. هل هو حيّ، هل هو بصحّة جيّدةٍ، ماذا يأكل، هل لديه مكانٌ يريحُ عليهِ رأسه؟

وقف الناس بلا حراك في وجه الرّياح والبرد، متشبّثين بعضهم

ببعض كقطيع من الأغنام بينما كانت الصور الظلّيّة الداكنة تلوحُ في كآبة الليل الذي يفتحُ أبوابهُ ويتحرّر من قبضة يوم يحتضرُ شيئًا فشيئًا. انحنت إيفا على مارثا. كان من الجيّد وجود شخص بجانبها، شخص أقوى وأشدّ صلابة. عرفت مارثا دائما كيفَ تخرجُ من أيّ موقف. لم تعتقد إيفا أنّها رأت صديقتها تبكي من قبل، فهي تؤمنُ بالحياة، وحتّى الآن مازالت عمودًا وملجأ يسندُ ويقي إيفا التي كانت خائفة من كلّ شيء ومن السّهل إخافتها. آه يا مارثا، كم هو جميلٌ أن تظلّي بجانبي، لا يمكنني أن أنبسَ بشيءٍ، لقد تجمّدت الحروفُ في فمي. لو كان العالم بلا مارثا، لفقدَ بوصلتهُ رغمَ أنّهُ مجرّدُ كتلة بلا ملامحَ أكثر من كونه عالمًا. وأخيرًا، ظهر جنديّان شابّان: الرّاجح أنّهما في سنّ الثامنة عشرة. ولكنّهما صارمان وخطيرانِ. كانا يسحبان وعاءً ضخمًا محمّلا ببقايا الطّعام، معظمها قشور بطاطا، قشور البطاطا التي كان البشرُ ينتظرونها بشدّةٍ، المسنّون والنساء والأطفال، وإيفا ومارثا.

بدت عيونهم مشتعلة وهم يتحرّكونَ جميعهم إلى الأمام. كانوا جميعًا يتضوّرون جوعًا، ومتعبين من فرط الانتظار. لقد تجمّدوا وجفّت وجوههم ونحلت أجسادهم وأضحت كما لو أنّها خرقٌ مرميّة في الفراغ. احتشد الجميع، لكنّهم كانوا يعلمون أنّ عليهم الانتظار حتّى الحصول على إذنٍ. نبسَ الجنديّان الشابّان بشيء مّا، لكنّ إيفا لم تكن تتحدّث الرّوسية. كلّ ما كانت تعرفهُ هو عبارةُ «شكرًا» و«وداعًا» كما تعلّمّت أن تقولَ «خبز» و«بطاطس». ولكنّ

الجنديّينِ لم يقولا «خبز» ولم يقولا «شكرًا». كانَا يصرخانِ: «ما الذي تفعلونهُ يا فراخ الشيطان؟ ما الذي تفعلونهُ أيّها الفاشيّون؟ تراجعوا وإلّا ضُرِبْتُم! لا يتسلّقنّ بعضكم بعضًا!». ما من أحدٍ كانَ يتسلّقُ الآخر، كلّ ما كانوا يفعلونهُ أنّهم يقتربونَ بتردّدٍ، كلّ شخص كانَ يترقّب الانقضاض على حصّتهِ من الطّعام، والتي سيكونُ حجمها بحجمِ أكفّهم التي ستمسكُ بالرّغيف.

اقتربت إيفا وآخرون من الجنديّين الشابّين، كانَ القِدرُ مليئا ببقايا البطاطس وقُشورها. ومع مرور القليل من الوقت، تشوّهت الأرضُ أمامهم، وفقدت الأيادي والوجوه ملامحها، وتوسّع كلّ شيء ثمّ تقلّص مرّة أخرى، وخفتَ كلّ شيء. لقد أفرغ الجنود الوعاء مباشرة على الأرض، مباشرة بالقربِ من مقصف الجيش في نهاية الفناء. بالمكانِ الذي كانَ في الماضي حانةً وأضحى مقصفًا. رمَوا الكثير من فضلات الطّعام اليوم؛ ولكنّهم لم يكونوا محظوظين على الدّوام، خصوصًا في المساء. صاح الجنديّ الشابّ: «عوّلوا على أنفسكم أيّها الفاشيّون!». الشيء الوحيدُ الذي قالهُ باللّغة الألمانية كانَ: «أنتم هنا الآن». كان كلّ شيءٍ باللغة الرّوسيّة، ولكنّ الكلمات بالنسبة إلى الأشخاص الذين يتضوّرون جوعًا مع البرد القاتل تفقدُ معناها وتغدو بلا أهمّيّةٍ مهما تكن. اندفعوا نحو قشور البطاطس والفضلات الأخرى، وأمسكوها وحشوها في أكياسٍ وحقائب صغيرة من الكتّان. بدأت امرأة عجوز بالصراخ: «هذا ملكي، هذا ملكي! أريد أن أعيش أيضًا!». سقطت فتعثّر شخص

فوقها وداس على يدها، ممّا جعلها تصيح مرّة أخرى. ذهبت إيفا إلى ما تبقّى من رغيف الطّعام، توقّفت لحظةً، ربّما نصف ثانية، حيث رأت فجأة دودةً تتلوّى في بقايا الطّعام، ولكنّ الصورة تبدّدت على الفور بصوت مارثا: تذكّري الأطفال. أو ربّما لم تكن مارثا على الإطلاق، ربّما كان صوتها هو الذي يذكّرها بالأطفال، صوت الأمّ الذي في داخلها، ذلكَ الصّوت الذي يرفضُ أن يموت. أمسكت قشور البطاطا المجمّدة في كيس الكتّان الصغير ومزّقتها. ربّما كانت تبكي أيضًا، أو ربّما كانت مجرّدَ دموع قليلة ممزوجة بالبرد والرياح.

قال الجنديّ الرّوسيّ وهوَ ينقرُ حاملة سجائر على زاوية المبنى كي لا يفرغَ التبغَ من داخلهِ: «إنّهم مجرّدُ خنازير، هم ليسوا حتّى بشرًا».

كانت العاصفةُ الثلجيّةُ تستعرُ والرّياحُ ترمِي نُدَفَ الثّلجِ في عيونِ البشر. كانت إيفا تركضُ رفقة مارثا، لكنَّ المشيء كانَ أمرًا في غاية الصّعوبة وقد بدأت الصور الظليّة لأجسادهم المنحنية إلى الأمام تختفي معَ حلول اللّيل. وأخيرًا وصلوا إلى الملبنةِ القديمةِ، ثمّ بلغوا ورشة تمشيط الصّوف التي دُمِرَّ ركنٌ منها بقذيفة مدفعيّة. شُقَّ المبنى مثل خاصرة حيوان مذبوح، ولكن في الدّاخل لم يكن هناك سوى ظلامٍ مطلقٍ. لقد جعلتها هذه المباني الخالية من الحياة جمادًا؛ كانت دائما ترى الظلال تضطهدها هي ومارثا. كانَ البرد يعانقها ومعَ ذلكَ كانت تتعرّقُ.

في العاصفة، تبدو هذه المدينة الصّغيرة حيثُ ولدت مدينةً

غريبةً، يملؤها الرّعبُ ويحرقها الأذى. يتردّدُ صوتُ رصاصةٍ في مكانٍ مّا وتلحقها أخرى. تسارعت وتيرة خطوات النساء. جاء صوت الأكورديون الرّوسيّ في تموّجات، فامتزج بقصفِ العواصفِ والثلوج السّميكة. ورغمَ أنّهُ كان صوتًا غريبًا، فإنّ له تأثيرًا مهدّئًا، إذ كان توقّعه مستبعدًا جدًّا، كما لو أنّهُ انبعثَ من عالم آخر. إلى درجة أنَّ إيفَا اعتقدت في خلدها، أنّها هي من كانت تعزفُ تلك الموسيقى، هذه الموسيقى البرّيّة البسيطة التي تتردّدُ في طمأنينةٍ كبيرةٍ. أمسكت إيفا بإحكام بقشور البطاطس التي جمعتها بالقرب من مقصف الجنود. كانَ الأطفالُ في المنزلِ ينتظرون والجوعُ يكسرُ بطونهم، أطفالها الذين كانوا أغلى من الحياة نفسها. رغبت إيفا في أن تصرخ مثل ذئبةٍ أو أن تبْتُر قطعةً من جسدها وتطعمها أطفالَهَا الجوعى والأبرياء وهم يعانونَ العقوبة التي سلّطت من الإله نفسه. كانت تعيدُ بقايا الطّعام الذي رماهُ الجنودُ الرّوس أمّا لوت فتُجفّف قشور البطاطس على موقدٍ محمولٍ ثمَّ تطحنها على الأرضِ في مطحنةِ القهوة وتصنعُ منها خبزًا مسطّحًا. لم تكن إيفا تعلمُ كيفَ ستظّلُ على قيد الحياة مع لوت ومارثا. كانت إيفا ومارثا تسرعانِ نحوَ المنزلِ وهما تواجهان الرّياحَ العاتية والخوفَ من فرضيّة أن يتكلّم أحدٌ مّا إليهما. من وقتٍ إلى آخر، ينكسرُ الضّوءُ على الثّلجِ المتساقط، كانا يحاولان التّعرّف على المراكب والجنود وأشكال أخرى من نوعٍ آخر. شخصٌ مّا كانَ يضحكُ وشخصٌ آخرُ كانَ يصرخُ ناحيتيهما، ولكنّهما تظاهرتا بعدم السّماع. كانَ من المهمِّ المواصلة وعدمُ الالتفات والعبور في

هدوءٍ. مشت إيفا وهيَ تتلو في كلِّ خطوةٍ تخطوها دعاءً من اليسوع: «يا أبانا الذي في السنوات، قُدِّس اسمك...». لم تكن متديّنة، بل كانت متحرّرة، ولكنّها الآن تردّدُ الدّعاء بطريقة متواصلة، إلى درجة أنّها علّمت أطفالَها الدّعاءَ. بدا لها أنّهُ دعاءٌ مفيدٌ وأنّ القدّيسين يقدّمون يد المساعدة وأنَّ تلكَ الكلمات قد انبعثت من شفاه الرّب. سخرت منها مارثا قائلة: «لقد صرتِ متديّنة الآن».

لم تكن إيفا غاضبة من مارثا. كانَ أمرًا مستحيلًا أن تغضبَ من تلكَ المرأة الجميلة والقويّة التي لا يمكنُ أن تنكسرَ بأيّ بليّة، ولا يمكنكَ أن تغضبَ منها ولا من ضحكتها المُعدِيَة. من الصّعبِ أن تضحكَ الآن، لكنّها تضحكُ أحيانًا، ربّما تضحكُ كي تخفّفَ من مزاجِ الحزن الذي يخيّمُ عليها. فجأةً أمسكَ شخصٌ مّا بذراع إيفا، صرخَ جنديٌّ سكران وهوَ يضحكُ، بدا من عينيهِ أنّهُ كائنٌ مجنون:

- Babushki, babushka [1]

كانت إيفَا مذعورةً جدًّا. أطلقت صرخة ودفعت الجنديّ الذي أحكمَ قبضتهُ عليها، إلى درجة أنّهما سقطا معًا دفعةً واحدة. اشتمّت إيفا رائحة كحولٍ كريهة تنبعثُ من فم الجنديّ، فدفعتهُ وضربتهُ وحاولت التّخلّص منه. ولكنَّ الجنديّ تشبّثَ بكُمّها، قبل أن تأتي مارثا مسرعة وتبعدهُ. تحلّق جنود آخرون حولهم وهم يضحكون كاشفينَ عن أسنانهم. أسرع الجنود ناحيتهم، محاولينَ التّعرّف

---

1. تعني في اللّغة الرّوسيّة جدّتي وقد استعملت هنا في النّص في موضع سخرية

عليهم وسطَ ضبابٍ كثيفٍ زرعتهُ الثّلوجُ. كانوا يصرخونَ بشيء مّا ويضحكون. بدا أنّهم كانوا يحرّضونَ بعضهم بعضًا، والآن بدؤوا يتكلّمون بالألمانيّة ساخرين: «لا تخفنَ، نحنُ لطفاء جدًّا» ثمَّ أطلقوا ضحكة تهكّم عالية. أفلتت مارثا من أحد الجنود وأمسكَ أحدهم بقدم إيفا. سقط أحد الجنود، ورغمَ سقوطهِ على الأرضِ ظلَّ يحملُ في داخلهِ الجوعَ إلى مضاجعة امرأة. في النّهاية، تمكّنتا من الهربِ. ركضتا بسرعةٍ ولكنَّ أعداءهما لن يستسلموا بسهولةٍ. ركضوا خلفهما وأطلقَ أحدهم النّار في الهواء. تمسكّت إيفا بالطّعامِ الذي كانت تضغطُ عليهِ في صدرها. ببساطة لم يكن من السّهل التّخلي عن كنزها ذاك. غابتَا عن الطّريق وغرقتا في الظّلمة بينَ المباني، لقد كانتا تعرفان أدقَّ التّفاصيل في تلك المدينة الصّغيرة. سارتَا بالقربِ من المدرسة، ثمَّ عبرتا من أمام مقرّ الشرطة الفارغ ومن السّاحات ومن الحدائق. كانَ الهدفُ الأهمّ أن تتخلّصا من الجنود، وأن يضيعوا في العاصفة الثّلجيّة، ربّما يلحقونَ بهما إلى المنزل، ولكن في النّهاية لم يكن في وسعِ الأقفالِ الخشبيّة الهشّة أن توقفهم. إذ كانت عائلة إيفا تعيشُ في سقيفة خشبيّة قديمة، وتمّ الاستيلاء عليها من قبلِ ضابطٍ وزوجتهِ، طرداها فور السّيطرة عليها. وجدت ملجأً تحتَ حائطِ بناية، وجثمت في زاوية وانتظرت. أينَ كانت مارثا؟ أينَ اختفت؟ لقد كانتا تركضانِ معًا وتمكّنتا من الدّفاع عن نفسيهما والتّخلص من المعتدينَ السّكارى، ولكن أينَ هي الآن؟ فجأة سمعت إيفا صرخاتٍ، وأعقبَ ذلكَ صدى إطلاق للرّصاص. آه يا الله، احمني واحمِ صديقتي مارثا، احمِ عائلتها وأطفالها وأطفالي،

أخرجنا من وادي الموت وأعد إلينا حياتنا. حاولت إيفا أن تمشي، ولكنّها تعثّرت بغصنٍ. لا، لم يكن غصنًا. لقد كانَت ذراعًا آدميّة لجثّة متجمّدة. كانَ البشرُ هناكَ، يقولون إنّ الذّئابَ هناكَ تنمو وتتغذّى على اللّحم البشريّ. ولكن، لماذا يتحدّثُ الجميعُ عن الذّئاب وقد تحوّل البشرُ جميعهم إلى ذئابٍ أيضًا؟ لم تكن إيفا متفاجئة، لم تكن مذعورة بذلكَ الكائنِ المسجّى، كانت مندهشة قليلًا فحسب. أنصتت إلى اللّيل وإلى الرّياح، وتأكّدت من أنّه لا وجودَ لأحدٍ حولها فمضت نحوَ البيت. تلاشى جسدها في سديم اللّيل، وظلَّت الجثّة خلفها، يداها مفتوحتانِ وتتوسّلانِ، كما لو أنّهما لا تشعرانِ بالبرد.

البردُ. يسلكُ البردُ طريقهُ عبرَ كلِّ الفجوات، ولا يجدُ راحتهُ إلّا في السّقيفة الخشبيّة التي لا تصلحُ لتكونَ مأوًى بشريًّا. تدوّي العاصفة الثلجيّة المستعرةُ وتخترقُ الجدرانَ الرّقيقة. كانَ ثمّة دهن لصنعِ الشّموعِ وُضعَ فوقَ صندوق يُستعمَل كطاولةٍ، احترقَ وآلَ في النّهاية إلى شيء شبيهٍ بأعقابِ السّجائرِ. لقد تمكّنت العمّة لوت السعيدة الحظّ من جمع ما يكفي من الشّموع. لم تؤمن يومًا بانتصارٍ ولم تؤمن بالجموع البشريّة التي ترفعُ أياديها وتصرخُ منتشيةً في انتظار حبيبها الفهرر، وهوَ يخطو على الأرض بخطواتٍ مثيرةٍ. «هل تذكرين كيفَ كنّا نصرخُ جميعًا بصوتٍ واحدٍ ونحنُ مفتونينَ، ألمانيا! ألمانيا! كيف كانت العجائز والفتيات الشّابات على استعداد لفتح أرحامهنّ على نسل القائد؟» لكن العمّة لوت ليست من بين أولئك النساء، لقد كانت كاتبة، وكتبت كتبًا ذات يوم. ولكن، أينَ هي تلكَ الكتبُ؟ من يحتاج إليها الآن، وكلُّ ما تبقّى هنا مجرّدُ ريح تعصفُ وبردٌ يدوّي مع الموتِ والجوع؟ يرتعشُ ضوءُ الشّمعةمعَ هبوب الرّياح. كانت العاصفة تولولُ وتلعقُ الجدرانَ. في الدّاخلِ يظلُّ البردُ أبديًّا، يتحدّى الموقد المعدنيّ الذي يحاولُ أن يقدّم يد المساعدة وإن قليلًا. عليكَ أن تشغّلهُ على الدّوام وعليكَ أن تقتني

الخشبَ من الخارج بعد جمعهِ من المدينة. كانت تلكَ مهنة الأطفال، ولكنّ الجوعَ أنهكَ أرواحهم وكلّ خطوة نحو المدينة الآن عبارةٌ عن تحدٍّ. كانَ الجنودُ والمستعمرون الجدد هناك، يشكّلونَ مصدرًا للإنهاكِ، إذ كانَ أغلبهم من الضبّاط المصابين الذين تركوا صدماتِ الحربِ خلفهم. لقد خُصِّصت منازل لهم، وسُمِحَ لهم بأخذ ما يريدونهُ، دون التفكير في أولئك الذين يعيشون فيها. كل مبنى، كل منزل، كلّ ساحة لها مالكها. خذوا كلَّ شيءٍ، ذلكَ حقّكم وتلكَ غنيمة حرب. الآن، يعيشُ ضابطٌ رفقة زوجتهِ المتورّمة. يجدُ الرّجلُ صعوبةً في استعمال يدهِ اليمنى، ومع ذلكَ مازالَ قادرًا على ضربِ زوجتهِ. في المرّة الأولى التي سمعوا فيها صرخاتِ تلكَ المرأة الممتلئة التي كانت ترتدي ثوب النّوم الذي يعودُ إلى إيفا، كانَ الجميعُ خائفًا. فقد بدا أنّهُ سيقتلها. على الرغم من أنّ الموت كان في كلّ مكانٍ حولهم، فإنّه كان فكرة فظيعة. كان ضرب رجل لزوجته شيئًا غريبًا جدًّا، ولاسيّما عندما تكونُ في السّادسة من عمركَ، مثل رينات، أو خمس سنوات، مثل هيلموت. لكنّه لم يقتلها في ذلك الوقت، ولم يقتلها في أيّ زمنٍ مضى. في البداية كانَ الخوفُ يتملّكهم وهُم ينصتون إلى نحيبٍ صاخبٍ غريبٍ يستمرُّ طوالَ اللّيل، كما لو أنّهُ ينبعثُ من أكثر الأشخاص تعاسةً في هذا العالم أو من بعض الحيوانات البرّيّة. ولكن بعد فترة لم يعد ذلك مقلقًا بالنسبة إليهم، فقد أضحى ذلكَ النّحيبُ أغنية حبٍّ لها طابعها الخاصّ.

عندما ظهر الجنود الرّوس الأوائل صلّى الناس. كانوا خائفين، لكنّهم اعتقدوا أنّ أحفاد تولستوي ودوستويفسكي لن يكونوا غزاة وحشيّين. كان أحد الجيران يدخل إلى فناء منزله للتّدخين من غليونهِ، ويقول لجدّه إنّ الروس أناسٌ متعلّمون، ولا يوجد ما يخشونه، فهم بشر مثل كلّ البشرِ. ولكن سرعانَ ما ظهر الرّوس، وكان بعضهم قصير القامة، إلى درجة أنّ البنادق التي علّقت على أكتافهم، كانت تلامسُ كعوبهم، وكان من الصعب رؤية كيف لم تتشابك أقدامهم في معاطفهم الطويلة. سرعان ما أصبح الجار مقتنعًا بأنّ هؤلاء الفتيان، الذين تركت الحرب آثارها على وجوههم، لم يقرؤوا تولستوي البتّةَ، وأنّهم قرؤوا شيئًا آخر، وعانوا شيئًا مختلفًا. بالنسبة إليهم، سنوات الحرب الأكثر وحشيّة هي التي زرعت تلكَ القسوة في قلوبهم، وموت أيّ شخصٍ لم يكن ذا قيمةٍ كبيرة، فقد استهلكوا رغبتهم في الانتقام. حاول الجار، الذي كان بإمكانه التعتيم على لكنتهِ الرّوسيّة الضّعيفة، التحدّث إليهم، ولكن سرعان ما كان معلّقًا على غصنِ شجرة التّفاح في فنائه الخاصّ، وكانت قدماه غير قادرتينِ على الوصول إلى الأرض. احتجّ جدّهم على حقيقة طردِ عائلته من المنزل، ومن حديقة منزلها المحبوبة، ورميها في الفناء مع الحطبِ، حيث كان هو وأبناؤه الخمسة وابنته وزوجة ابنه، يحاولون العثور عن مأوى. لقد رحلَ بحثًا عن العدالة من القادة المنتصرين ولم يعد بعد ذلكَ. قالت له ابنتهُ آونتيلوت: «أبي، لا تذهب، فلن تغيّرَ شيئًا». ولكنّهُ مع ذلكَ، غادرَ نحوهم، رغمَ شيخوختهِ ومرضهِ وكلّهُ فخرٌ واعتزازٌ، إذ كانَ قد حاربَ في

الحربِ العالميّة الأولى. أخذ علبةَ سجائره ووضعها في جيبهِ، وكذا أخذ بعضَ القطعِ الثّمينة، معالقَ من ذهب ومن نحاسٍ، علبة سيجار رُسِمَ عليها نسرٌ. في النّهاية، كلّ ما يبتغيه هؤلاء الأطفال هو الدّفء وأسرّةٌ ينامونَ عليها. قالَ العجوز: «سنقدّمُ كلّ ما في وسعهِ أن ينقذ أرضنا». ولكنّهُ لم يعد بعد ذلكَ. وهكذا، أضحت سقيفة المنزلِ بيتهم.

صحيحٌ أنّهم لم يغادروا إلى ذلكَ المكانِ على الفور.

بدا الغزاةُ الأوّلون أفضل. كانت إيفَا تحبُّ العزفَ، حتّى إنّها التحقت بالدّراسة في معهد الموسيقى ولكنّها لم تصل إلى مرحلة التّخرّج لأنّها وقعت في حبِّ فلّاحٍ طويل القامة ومنمّشٍ ولا تفارقُ الابتسامة وجهه، اسمهُ رودولف. كانَ قد أخذ إيفا إلى مزرعتهِ في بروسيا الشّرقية. في البداية كانَ الأمرُ صعبًا بالنّسبة إلى امرأة جميلة من برلين، ولكنّ الحبّ يغزو الجميع، ولهذا أنجبت الطّفل تلوَ الآخر. اشترى لها رودولف بيانو رائعًا، أمّا هي فكانت تحبُّ آلة بيانو كبيرة، ولكنّ ذلكَ كانَ جهازًا باهضًا بالنّسبة إلى عائلة فلاحيّة بسيطةٍ. معَ مرورِ الوقت، اندلعت الحربُ، ولوّحَ رودولف بيدهِ مودّعًا. عزفت إيفا معزوفات موزارت وراخمينوف وغنّت الأغاني الشّعبيّة التي يحبّها الأطفال. آه، لقد كانت أيّامًا مباركة وسعيدة، شيئًا لم يسبق له مثيل، شيئًا ربّما حلمت بهِ في سقيفة الخشبِ الباردة وهي نائمة، نومَ عازفة يقضمها الجوع.

كانَ الوافدون الأوائل أكثرَ ثقافة. عندما علمَ نقيبٌ روسيٌّ أنّ

هناكَ آلة بيانو في بيتهم، قدم إلى المنزل وقدّم اعتذاراتهِ وطلبَ الإذن من إيفا وجلسَ على جانب الآلة الموسيقيّة. عزفَ بمهارة عالية، وبدا في أغلبِ الظّنِّ أنّهُ كانَ عازفًا قبل اندلاعِ الحرب. كانَ اسمهُ أندري.

كانَ غالبًا ما يعزفُ معزوفات بيتهوفن. تعجبهُ معزوفة سوناتا القمر بنهايتها الدّراماتيكيّة، فبدا الأمرُ بالنّسبة إلى إيفَا أمرًا مذهلًا، إلى درجة أنّها لم تصدّق أنَّ تلكَ الموسيقى تنبعثُ من آلة البيانو الخاصّة بها، بل رأت الأمرَ شبيهًا بحفلةٍ موسيقيّةٍ. ذاتَ يومٍ، فتحَ النّقيبُ أندري بعضَ أوراق الموسيقى التي تعودُ إلى أمّها حينَ وجدها مرميّة بجانبهِ. بدت له الأوراقُ غريبة، إذ كانت تضمُّ معزوفاتٍ لإيريك ساتيه[2]. لم تخبرهُ إيفَا من أينَ حصلت على المعزوفات. لقد أدّى رودولف الخدمة العسكريّة في باريس المحتلّة وأرسلها إليها. بدت الموسيقى بسيطة، ولكنّها آسرة، وهذا ما جعلها الموسيقى المفضّلة لدى إيفا. لم تعلمُ ما إذا كانت تلكَ المعزوفات قد أرسلت من قبلِ ساتي الذي تحبّهُ أم من قبل حبيبها رودولف. أو ربّما أرسلت من قبلهما معًا. بدأ أندري في عزفِ معزوفة Gnossienne No. 5 لساتي. كانت رينايت الصّغيرة أيضًا تعشقُها، وكانت تفضّل الرّقصَ على إيقاعاتها في المطبخِ بينما

2. إيريك ألفريد لايزلي ساتيه هو عازف بيانو ومؤلف موسيقي فرنسي الجنسية. كان ساتيه شخصية نابضة بالحياة ضمن الطليعة الباريسية في أوائل القرن العشرين. ولقد عمل ساتيه كمبشر بالحركات الفنية اللاحقة مثل التبسيطية والموسيقى التكرارية ومسرح العبث

النّقيبُ الرّوسيّ يعزفُ.

مع مرورِ الوقت، غادرَ النّقيبُ، وأتى آخرون لا حاجة لهم بالبيانو ولا «بساتي» ولا «ببيتهوفن». صادروا كلَّ شيءٍ، وطردوا الحيوانات الأليفة من المنزلِ، وطردوا الأسرة نحوَ سقيفة الخشبِ، ولم يعد الجدُّ بعدَ ذلكَ، ولم يحاول أحد الحديث عنه بعد الآن. لقد غادر، كانت تلك هي الحقيقة. لم يكن هناك بيانو في السّقيفة الخشبيّة. لم يكن هناك شيء تقريبًا، فقط كانَ ثمّة موقد معدنيّ تمكّنوا من الحصول عليه من خلال بعض المعجزات، وقد اعتمدوا عليه بشكلٍ يوميٍّ، بالإضافة إلى الشموع التي حصلت عليها العمّة لوت من مكانٍ مجهولٍ، معَ أشياء قليلة تمكّنوا من حملها إلى المنزل: بعض الملابس والفراش ومعطف جلديٍّ يعودُ إلى الجدّ.

بدلًا من السرير كانت لديهم ألواح خشبيّة، حيث كانترينات ومونيكا وبريجيت وهيلموت مستلقين الآن ومدثَّرينَ بكلّ ما لديهم من أغطية أو ملابسَ. كانت العمّة لوت تجلس بجانبهم، وتؤجّج الموقد وتسردُ عليهم حكاية خرافيّة بدلًا من إعطائهم بعض الطعام. ثُبّتَت الصور على الجدران وتمكّنوا من حفظها إذ جمّدت الكاميرا لحظات سعيدة من الماضي.

صورةٌ لجميع أفراد الأسرة: الجدّ، والدهم رودولف، وهاينز المبتسم وأمّهم المبتسمة إيفا، والجميع، كان الجميع يبتسمون ويضحكون في جوٍّ من السعادة والرّضا. انزلقت نظرة لوت على طول الجدران مثل الأشعّة السينيّة، ومسحت الابتسامات في

الصور المعلّقة. تنهَّدت وألقت بعض قطعِ الخشب في الموقد. كان من الأفضل لو أنَّ الأطفال قد ناموا، لكنّهم كانوا مستيقظين. انتظروا انتهاء العمّة لوت من سردِ حكايتها، إذ كانت على الدّوام تروي الحكايات، وهي تحاولُ عبثًا أن تبعدهم قليلًا عن الجوعِ والبرد. كانَ البردُ يحوّمُ في كلِّ مكان، فيقضمهم الجوعُ مثلَ نارٍ متجمّدة لا تنتهي. كانت النّيرانُ تستعرُ، كما لو أنّها لم تنطفئ منذُ عهدٍ بعيدٍ. لم يعد بإمكان الأطفال أن يتذكّروا الوقت الذي لم يكونوا فيه جوعى. ومهما كانت القصص الخياليّة التي رُويت لهم، فإنّ هناك دائمًا ذكرًا للخبز واللّحوم واللّفت والطّعام اللذيذ.

لم تعد إيفا إلى الآن. كانت العاصفة الثّلجيّة تعصفُ وتدوّي في الخارج، يتخلّلها صدى لطلقات ناريّة. ففي مكانٍ مّا، كانت الكلابُ تمزّقُ بعضها بعضًا.

- متى ستعودُ أمّي إلى البيت؟ سألت رينات.

- إنّها آتية، إنّها آتية.

في الليل، نهض هانسل سرًّا وتسلَّل إلى الخارج حتّى لا تسمعهُ زوجة أبيه. كان القمر عاليًا، ونوره ينسكبُ على الطريق، وكانت الحجارة تلمع مثل الأزرار. قرّر هانسل أن يملأ جيوبه بأزرار القمر تلك. ملأ جيوبه بالحجارة اللّامعة وعاد إلى السرير. عند بزوغ الفجر، جاءت زوجة الأب لإيقاظ الأطفال:

- انهضوا أيّها الكسالى، سنذهبُ لنقطعَ بعض الأشجار، لقد

نفدَ عندنا الحطب.

- متى تعودُ أمّي إلى البيت؟ سأل هيلموت.

- ستعودُ إلى البيت... ستعودُ قريبًا... كن صبورًا.

غادرَ جميعهم إلى الغابة. كانت جريتل تمشي، تبكي بصمت وتفكّرُ في ما سيحدث بعد ذلك. ستضعنا زوجة الأب على الطريق الخاطئة عبر الغابة - لكنّ هانسيل كان يخطو بجرأة. بدا مبتهجًا وسعيدًا. حينَ يخطو بضع خطوات، يسقط بعض الأحجار التي جمعها في اللّيلِ. طلب الأب من الأطفال جمع الأغصان وتجهيز الموقد. جهّز الأطفال الموقد وأشعلهُ والدهم. قالت زوجة الأب:

- والآن، عليكم الجلوس هنا على الموقد. أمّا أنا ووالدكم سنذهبُ لقطعِ بعض الخشب. لا تتحرّكوا وتبتعدوا عن الموقد، لأنَّ حيوانات الغابة ستقطّعكم إربًا إربًا.

- متى ستعودُ أمّي، قالت مونيكا.

- إنّها قادمة، إنّها قادمة يا عزيزتي مونيكا.

تركت زوجة الأب والأب الأطفال جالسين حولَ الموقد وتوغّلا في الغابة. لم يذهبا لقطع الحطب. كلّ ما فعلاه هو ربط قطعة خشبٍ بشجرة: تمايلت قطعة الخشبِ مع الرّياح، وبدت معَ كلّ ضربةٍ على الشجرة شبيهةً بضرباتِ فأس. كان الأطفال جائعين جدًّا. لم يكن لديهم الكثير من فتات الخبز ليأكلوه منذُ وقتٍ طويلٍ، لكنّهم عرفوا أنّ النوم يمكن أن يقهر الجوع. عليكَ أن تنامَ كي ينامَ

الجوعُ في داخلك. وهكذا ناموا بسلام بجانب النار التي أبقتهم دافئين حتّى منتصف اللّيل.

- أريدُ أن آكلَ... أريدُ أن آكل... شرعَ هيلموت في النّشيج.

- أمّي ستعودُ قريبًا، ستجلبُ شيئًا مّا للأكل، كن صبورًا.

- أريدُ أن آكل.

- أنصت إلى هذه الأحجية إلى أن تأتي أمّي، حاملة شيئًا لنأكلهُ. نَم قليلًا إلى حين قدومها.

- لا أريدُ حكاية، أريدُ قليلًا من الخبز!

لم تعد بريجيت، أخته الكبرى، قادرةً على تحمّل أنين هيلموت المستمرّ:

«اذهب إلى النوم، توقّف عن التّباكي! هل تعتقد أنّ حالكَ أسوأ من حالنا؟ هل تعتقد أنّك جائع أكثر منّا؟ هيلموت، كلّنا نريد أن نأكل، لكن يجب أن تتحلّى بالصبر. غدا سنذهب جميعًا ونبحث عن الخبز وسنجد القليل من الخبز، سنجد القليل. وربّما سيعود شقيقك هاينز من ليتوانيا ويأتي لنا بالكثير من الأشياء. نَم الآن، نَم، يا طفلي الصغير».

- وماذا لو أكلَ الذّئبُ هاينز في الغابة؟

صبّت لوت بعض الماء المُغلّى بإبريق الشاي في كوبٍ، وأعطته لهيلموت. لم يكن هناك أيّ ذئاب لفترة طويلة، فلم تعد الذّئابُ

موجودة إلّا في القصص الخياليّة. بعدما أضحى الناس مثل الذئاب.

- اشرب الماء السّاخن، سيدفئكَ، ستنامُ وتدفئُ بطنكَ.

شربَ هيلموت الماء وطلبَ الأطفال الآخرون هم أيضًا قليلًا من المياه.

طيلة الشّتاء، كانَ الظّلامُ يغطّي كلّ شيءٍ، لكنّهُ لم يكن ظلامًا مكتملًا، فالثّلجُ المتساقطُ كان يزرعُ بياضهُ على اللّيالي الآتية. كانَت إيفا على عجلةٍ من أمرها، وهذا ما جعلها تنزلقُ وتقفُ مرّة ثانية ثمّ تتوقّفُ برهةً وتنصتُ إلى العالم من حولها كي ترى ما إذا كان يمكنها سماعُ صدى طلقات رصاصٍ أو صراخ. أمامَ هولِ العاصفة الثّلجيّة والضّوء الخافت، لم تتمكّن إيفا من الحصول على مبتغاها، ولكنَّها كانت تعلمُ أنّ خيطَ الضّوء الذي يلوحُ من فوق المباني يشيرُ إلى وجود مقرٍّ للجيش الرّوسيّ الذي كانَ في ما مضى مبنًى مدرسيًّا. يعني ذلكَ، أنّهُ يتوجّبُ عليها التّوجّهُ يسارًا. ستجدُ بينَ البيوت ممرًّا ضيّقًا، ما إن تتجاوزهُ إيفا، حتّى تجدَ نفسها في الطّريق الرّئيسيّة داخل المدينة. عليها أن تقطعَ الممرّ وستجدُ نفسها في المنزلِ.

كان الثلج المحوّمُ في الهواء يزرعُ صقيعهُ في وجهها وهذا ما جعلَ جفناها يلتصقان. ربطت إيفا كيس الكتّان الملىء بقشور البطاطس على ثديها، كانت في حاجة إلى أن تكون في المنزل، عليها أن تعود إلى المنزل في أسرع وقت ممكن. استدارت نحوَ الزاوية

واصطدمت ببعض الجنود الروس الذينَ كانوا يدخّنون. لم تكن إيفا تعلمُ ما يتوجّبُ عليها فعلهُ ولهذا انطلقت راكضة حتّى يغطّيها الظلام، عليها أن تركضَ بأسرع ما يمكن وأن تلتقطَ أنفاسها بينَ المنازلِ. لاحظها الجنود فاستدارت نحو اليمين كي تضلّل آثارُ أقدامها الجنودَ وتقودهم إلى الاتّجاه الخاطئ. كانوا يصرخون بالروسيّة، ربّما كانوا يصفّرون، وربّما كانوا يُقسِمونَ، أو ربّما كانوا متفاجئين فقط: «انظروا إلى تلكَ الألمانيّة اللّعينة. إنّها ليست سيّئة بالمرّة... إلى أينَ تركضين أيّتها العاهرة، إلى أين تركضين؟ لن نؤذيكِ، سترين كيفَ ستحبّينهُ، أيّتها المرأة، توقّفي، توقّفي!».

كانت إيفا قريبة جدًّا من فناء منزلها ومن أطفالها. وقفت خلفَ الحظيرة وهي تسترقُ السّمعَ، لكنَّ قلبها ينبضُ بصوتٍ عالٍ إلى درجة أنّها لم تستطع سماعَ أيّ شيء. كانت مذعورة والبردُ ينهشُ كلّ شيء في داخلها واليأسُ يطيحُ بها شيئًا فشيئًا. إلى متى ستكون قادرة على الوقوف هنا؟ كم من الوقت ستتمكّن من الاختباء. تجمّدَ خدّاها بينما كانت الرياح العاتية تمرّ بها مباشرة من جميع الاتّجاهات، ففقدت الإحساس بهما، بعدما أمضت الكثير من الوقت، ضائعةً في سديمِ اللّيل، هاربةً من مضطهديها؟

كانت العمّة لوت تروي حكاية لهانسيل وجريتيل، وتخبرهما عن كيفيّة إسقاط هانسيل لفتات الخبز على الطّريق حتّى لا يضيعوا.

قال هيلموت:

- لو كانَ الأمر بيدي، لما أسقطتُ فُتات الخبز، بل كنت

سآكلهُ. لقد تعوّدَ جدّي أن يضعَ العسلَ على رغيفٍ كبيرٍ من الخبز، ولكنّني لم أكن أرغبُ في أكلهِ. قال لي جدّي إنّهُ سيأتي يومٌ تفرغُ فيهِ ما في بطنكَ، وتبحث عن شيء تأكلهُ ولن تجدَ شيئًا.

- لا تقل كلماتٍ كهذه، قالت العمّة لوت.

- كيف علمَ ذلكَ، سأل هيلموت، كيفَ علِمَ يا عمّتي لوت أنّهُ سيأتي يومٌ يتملّكنا فيهِ الجوعُ ويؤولُ بنا الأمرُ إلى ما نحنُ عليهِ الآن؟

- اخرس، اخرس! صرخت بريجيت، جميعنا نريدُ أن نأكلَ، لماذا تصرُّ على الأنين والنّحيب. لماذا أنت الوحيد الذي لا يريدُ أن يلتزم الهدوء؟ لقد أخبرناك أنّ أمّي ستعود وتجلبُ معها شيئًا مّا. اخلد إلى النّوم، أو إنّني سأجدُني غير قادرةٍ على إيقافِ نفسي وأقتلع أذنكَ، وسترى حجم الغضب الذي سبّبتهُ لي!

- يا أطفالي، لا تتقاتلوا، لا وقت للخصام الآن! حاولوا النّوم. لا يمكننا أن نغضبَ من أنفسنا الآن، بل علينا أن نكون رؤوفين بها، وعلينا أن نقدّم يد المساعدة بعضنا إلى بعض، إنّها الطّريقة الوحيدة للمقاومة، إنّها الطّريقة الوحيدة ليقدّم بعضنَا يد المساعدة إلى بعضٍ.

- اصصص! هل تنصتوا إلى هذا الصّوت؟ سألت رينات.

أنصتَ الجميعُ.

نعم، لقد كانَ هناكَ وقعُ أقدامٍ، خطوات مسرعة، نعم، لا يمكنُ

لذلكَ أن يكونَ وهمًا. إنّها الأمُّ عائدة! ذهبت العمّة لوت إلى الباب وسألت: «من هناك؟».

- لوت، إنّها أنا، كانَ يمكنُ سماعُ صوت إيفا الخافتِ من الجانب الآخر.

فتحت لوت الباب فدخلت إيفا حاملة معها عاصفة ثلجيّة. أغلقت لوت الباب بسرعة، فسقطت إيفا على الموقد الحديديّ. قالت:

- لوت، لقد جلبتُ شيئًا للأكلِ.

- لقد كنتُ مُطاردةً، كانوا يطاردونني، لا أعلمُ كيفَ تمكّنتُ من الهروب منهم. لقد كانَ الجنودُ يطاردونني ولهذا انفصلتُ عن مارثا.

- ألم أخبركِ بما سيحدث، ألم أخبركِ أن تتجنّبي التّجول في المدينة هكذا؟ تعالي، ضعي هذا على وجهك.

أخذت لوت بعض الرّماد والتّراب ومرّغت بهما وجهَ إيفا ويديها وملابسها ورقبتها وبالخصوص وجهها.

- لقد قلت لك بأن تكوني حذرة وأن تخفي نفسكِ! عليكِ أن تضعي بعض القذارة على جسدكِ وعليكِ أن تشتمّينها حتّى تكوني في نظرهم ساحرة، ولا تنظري إليهم أبدًا.

كانترينات ينظرُ إلى ذلكَ المشهد، وتُحدّقُ في حجم القذارة التي

ملأت وجهَ أمّها وسرعان ما بدأت في الضّحكِ.

- أمّي أنت تبدين مثل ساحرة! أطفئوا الشّموع، أطفئوا الشّموع، الضّوء يتسرّبُ من زجاج النّوافذ الصّغيرة وعبرَ شقوقًا أصغرَ.

ولكنَّ الوقتَ تأخّرَ.

كانَ ثمّة شخصٌ يطرقُ الباب ويضربهُ. احتشدَ الجميعُ، أمّا إيفَا فقد استوت مع الحائط بينما شكّل الأطفالُ كرةً وهم متعانقون فوق السّرير المتداعي للسّقوط.

فتحت لوت الباب. اقتحم ثلاثة جنودٍ السّقيفة، فتبدّد ضوءٌ ساطع في الظلام الدّامس: كانَ لدى أحدهم مصباحٌ قويٌّ.

- حسنًا، كيف حالكم أيّها الفاشيّون؟ هل كلُّ شيء على ما يرام؟ لماذا تجلسون هكذا في الظّلام؟ هل تحاولون الاختباء؟

كانَ ضوءُ المصباحِ يتراقصُ حولَ السّقيفة الخشبيّة ويسطعُ على الوجوهِ المذعورةِ. في النّهاية استقرَّ ذلكَ الضّوء على وجهِ إيفا.

«انظروا إلى هؤلاء الألمان، إنّهم حيوانات متوحّشة، مجانين! لماذا لا يستحمّون! انظروا إلى الكائنات الشبيهة بفزّاعات قذرةٍ!».

ضربَ أحد الجنودِ إيفا على جانب بطنها ضاحكًا وسحبَ جنديٌّ آخر الغطاء من فوق الأطفال المذعورين الذين كانوا متعانقين ومتّحدينَ في جسدٍ واحدٍ. شرعَ هيلموت في الصّراخِ كما

لو كانَ فريسة.

سجدت لوت عند قدمي الجنديّ، وأمسكت به من يديه وقبّلتهما، وتوسّلت إليه بلغتها الرّوسية المكسورة: «لا تلمس الأطفال، لا تلمس الأطفال، من أجل الرّبّ، لا تفعل ذلكَ!».

ضحكَ الجنديُّ: «أَتنظر إلى هذه العاهرة، كيفَ تعلّمت الرّوسيّة بهذه السّرعة!».

أبعدَ العمّة لوت بعيدًا بقدمهِ، وجذبَ الجنديُّ الآخر هيلموت الذي كانَ يصرخُ وتوجّهَ إليه قائلًا: «توقّف عن الصّراخ أيّها الجرذ الصّغير!». ثمّ رماهُ على الفراش وأمسكَ بكتفِ بريجيت وأبعد يدي مونيكا ورينات عنها ثمَّ جذبَ الفتاة من فوق السّرير. سارع الجميع إلى الدّفاع عن بريجيت وهم يبكون ويصرخون، إلى درجة أنَّ هيلموت قد تشبّث بحذاء الجنديّ متمتمًا بكلمةٍ روسيّةٍ واحدةٍ: «Spasibo, spasibo, spasibo [3]».

تشبّثت العمّة لوت بذراع الجنديّ، فألقى بها، ورفع بندقيّته وضربها على رأسها بمؤخّرة البندقيّة، فانهارت في الحال، واستلقت على ظهرها كما لو كانت ميّتةً.

شرعَ الأطفال في الصّراخ، كانوا يبكون ويتوسّلون إلى الجنود. أمّا إيفا فقد كانت تجدُ صعوبةً في التّنفّس، وهي تحتضنُ بريجيت، حاضنةً إيّاها، تمتم بجملةٍ واحدةٍ: «اقتلني! اقتلني!». كانَ رأسها

---

3. تعني هذه الكلمة بالرّوسية شكرًا.

يدورُ من أثر الجوعِ واليأس فاتحًا الباب لصورٍ كثيرةٍ تظهرُ فجأةً وتبدأ في السّباحة أمام عينيها.

لم ينتبه أحدٌ إلى أنَّ هناكَ شمعةً مازالت تشتعلُ في السّقيفة الخشبيّة. كان الجنديّ الثالث يتفقّد مسكنهم المتواضع، وينظر إلى الصّور المعلّقة على الجدران. ابتسم كما لو أنّه يتذكّر شيئًا مّا، ثمَّ أشعل سيجارة، ومسّحَ على شنبهِ الكثيفِ بالإبهام والسّبابة، ثمّ استدار ليرى ما يحدث، كما لو أنّهُ انتبهَ للتوِّ إلى الصّراخ والتّوسّلات. كان وجهه مسنًّا ومتجعِّدًا ومتعبًا. لقد زرعت الحرب قسوتها على وجهه بعدما شهدَ موتَ أصدقائهِ وعذاباتهم، ورأى آلاف الجثث التي تسبحُ في دمها، مسجّاةً في خنادق دونَ أن تصدرَ منها حركة، وحده التّراب كانَ يغطّيها شيئًا فشيئًا ويحذفها من هذا العالم.

قال بصوت عالٍ وواثق: «اتركها وشأنها». لكن لم يسمعه أحد، فأمسك بالجنديّ الذي أخذ بريجيت من كتفيها وهزّه: «دعها».

استفسرَ الجنديُّ: «لماذا؟ لماذا أتركها وهي ألمانيّة؟».

أجاب الجنديُّ: «انظر، مازالت طفلة، تذكّر ابنتك يا فانيا».

صرخ: «يجب ذبح جميع هذه الحثالة الفاشيّة، وإلّا سوف يكبرون ويلدون المزيد من الفاشيّين!».

صرخَ الجنديُّ مباشرة في أذن الجنديّ: «نحنُ كائناتٌ بشريّة! نحنُ كائناتٌ بشريّة».

في غضبٍ وتهديد، حدّق أحدهما في الآخر برهةً وسرعانَ ما ترك فانيا الفتاة.

حينها ركلَ الغلّاية التي كانت على تغلي على الموقدِ المعدنيّ وهوَ يحدّقُ في العائلة المذعورة ثمّ غادرَ المكان فتبعهُ الجنديُّ.

تمتمَ الجنديُّ العجوز بالألمانيّة وهوَ يسيرُ خلفهما:

«يا لها من قذرة. ستصبحُ امرأة في وقتٍ قريب».

أمّا لوت فقد كانت تهمسُ: «شكرًا، شكرًا».

غادرَ الجنديُّ فهرعوا جميعًا ناحية العمّة لوت. كانَ الدّمُ ينزُّ ببطءٍ من رأسها، وكانت عينها متورّمة.

عانق بعضهم بعضًا.

قالت العمّة لوت: «كلّ شيء على ما يرام يا أطفال... أمّكم أتت ببعض الطّعام... سأجهّزُ لكم شيئًا للأكل».

كانَ الفجرُ يبزغُ على إيقاعِ قطارٍ يزمجرُ من بعيدٍ.

نامَ الأطفالُ وظلّت لوت مستيقظة. كانت إيفا تجلسُ على الموقدِ تحدّقُ أمامها ولا تفكّرُ في شيء. فتحت باب الموقدِ ورمت فيهِ مزيدًا منَ الخشبِ. للنّارِ تأثيرٌ على الرّوح، إنّها تريحها من التّعب. تذكّرت إيفا رودولف وتذكّرت والدَيها والقريبين منها الذين لم ترهم منذُ زمنٍ بعيد، والذين ربّما لم يعد لهم وجودٌ على هذا الكوكب المليء بالأحياء. تملّكتها رغبة مفاجئة في أن تنظرَ في عيونهم وفي ابتساماتهم. أشعلت شمعةً، وبحذرٍ جذبت صندوقًا من تحت السّرير كي لا توقظ الأطفال، حيثُ كانت تخفي الرّسائل. أخرجت تلكَ الرّسائل كي تستنشقها فاستنشقت رائحة الطّمأنينة والماضي. ربّما قالت في خلدها، كم أنا ساذجة. أخذت مجموعة متنوّعة من الصّور الفوتوغرافيّة، إحدى تلك الصّور كانت لزوجها وهوَ في الزّيّ الرّسميّ للجيش. بدا في تلكَ الصّورة في منتهى الرّجولة والأناقة. تُرى، أينَ يعيش الآن؟ ما الذي يأكلهُ وما الأغنية التي ينصتُ إليها؟ هل هوَ على قيد الحياة وهل مازال يذكرنا؟ لم تكن تستطيعُ أن تصدّقَ أنّ هذا الشّخص الذي هو

حبيبها وأبُ أطفالها يرقدُ على أطراف الشّوارع، ولم ترغب في ذلكَ أصلًا. عليهِ أن يكونَ على قيد الحياة، سيتعيّنُ على أطفالهِ العثور على أبٍ آخر، ولكن لماذا يعثرون على أبٍ آخر، لماذا قرّرَ أن يتلاشى من هذه الحياة؟ في النّهاية، سبق أن ذهب الرّجالُ إلى الحرب ومنهم من عادَ إلى أرضهِ. لا معنى حينها للنّصر أو الهزيمة، المهمّ أن يعودوا وهم أحياء.

حدّقت إيفا في الصّورة الفوتوغرافيّة ثمّ حدّقت في هيلموت النّائم، ثمّ في الفتيات ثمّ في لوت ونسيت نفسها. ابتسمت وسمعت مرّة أخرى قطارًا يزمجرُ من بعيد.

كانَ اللّيلُ يتلاشى والثّلجُ يذوبُ شيئًا فشيئًا. عمّا قريب سيبزغُ الفجرُ ويخرجُ معانقًا العاصفة الثّلجيّة التي بدت تخفُّ شيئًا فشيئًا قبلَ الفجر وقبلَ أن يزمجرَ القطارُ معلنًا قدومهُ. ثمّة خيالٌ صغيرٌ يلوحُ من بعيد، خيالٌ قادمٌ من جهة السّكّة الحديديّة. إنّهُ هاينز. كانَ عائدًا من ليتوانيا حاملًا قطعة من الخيش على ظهرهِ.

كانَ الطّفلُ الصّغير يسرعُ رغمَ التّعب الشّديد.

ولكنّهُ سرعان ما تلاشى في الظّلمة.

كانت إيفا تنظرُ إلى شظايا بلّور المرآة وهي تمشطُ شعرها وتزيلُ القذارة التي لطّختها لوت على وجهها. كيفَ تركت هذه الأحداث تلكَ الخطوط على جبينها وعلى شفتيها. كيف حدثَ ذلكَ بكلّ تلكَ السّرعة. لقد تقدّم بها العمرُ وتحتاج الآن إلى النّوم. عليها أن

ترمي بعض الخشب في الموقد وتعانق الأطفالَ قليلًا ثمّ تخلدُ إلى النّوم. ولكنّ إيفا تعلمُ أنّها لن تنام، بل عليها حراسة من ينامونَ الآن. كانت تفكّرُ في ابنها الكبير هاينز، تفكّر فيهِ وهوَ يمشي في اللّيل، ويفكّر هو فيها، في أمّهِ... في أخيه وأخواتهِ. أمّهُ تحملُ قلبًا يخبرها على الدّوام أنّهُ لم يعد على قيد الحياة. ولكن عليه أن يظلّ حيًّا، متشبثًا بها إلى الرّمق الأخير. لا لأنّهُ كانَ يأتي بالطّعام من ليتوانيا، ليس لذلكَ السّبب مطلقًا.

شعرت إيفا بأنّ الظلام ينقشعُ، والعاصفة الثّلجيّة بدأت في السّكونِ شيئًا فشيئًا، إلى درجة أنّ عصفها بدا خافتًا جدًّا حتّى تلاشى بعيدًا. بدأ ضوءُ النّهارُ يتسرّبُ عبر النّافذة الصّغيرة. بدا كلّ شيء حولهم ساكنًا كما لو أنّهم يعيشونَ تحتَ سطحِ المياه، وكما لو أنّ إيفا تسبحُ هناكَ، وتمشطُ شعرها كعروس البحر داخلَ قشرة عملاقةٍ. تلمّست إيفا تجاعيدها الحمراء بأصابعها نصف الشّفافة. تلكَ التّجاعيد التي لطالما أحبّ رودولف تقبيلها. أينَ هو الآن؟ أين هو الآن؟ أين هو الآن؟ شعرت أنّ قلبها يعتصرُ بألم شديد لا يمكنُ تحمّلهُ. بدا الألمُ جنونيًّا وهو يسري ناحية العقل، فبدأت في الصّراخ وفي النّشيج. لهذا أرادت أن تبكي، ولكن أينَ ذهبت دموعها وأين كانت؟ أغلقت إيفا عينيها وخفضت رأسها. عليها أن تركّز. عليها أن تحمي أطفالها الآن، رودولف وأخواتهِ. في الماضي، كلّ ما عليها فعلهُ، أن تضع ذراعيها حولَ كتفيهِ دونَ أن يتملّكها خوفٌ أو جزع من أيّ شيء. لم يمضِ وقت طويل منذ أن

كانت فتاتهُ، ولكن الآن، عليها أن تكون أمًّا، لا مكان في هذه الحياة للشفقة على الذّات. أعادت الرّسائل والصور الفوتوغرافيّة إلى الصّندوق ثمّ أخفتها تحت السّرير مرّة أخرى. لم تكتشف إيفا أنّها بدأت في الدّعاء، من أجل رودولف، من أجل هاينز، ومن أجل أطفالها ومن أجلها هي.

فجأة سمعت وقع شيء مّا كسر سكون الصّباح. كان ثمّة شخص يقتربُ، يقتربُ بخطى ثقيلة، بالأحرى شخصٌ يجرُّ خطاهُ بينما الثّلج يُسحقُ تحتَ قدميه. كتلٌ كبيرة من الثلوج كانت تتساقطُ. كانَ ذلكَ ابنها. بدا الأمرُ كما لو أنّ دم إيفا قد تجمّدَ. كانت تنصتُ وتنتظرُ، تنصتُ وتنتظرُ.

تقتربُ الخطواتُ أكثرَ.

شخصٌ مّا توقفَ عندَ باب السّقيفة الخشبيّة.

أصدرَ هيلموت تنهيدة في نومهِ.

طرقَ شخصٌ مّا الباب بكلِّ لطفٍ. نهضت إيفا من فوق السّرير، ترنّحت من أثر الجوع ومن أثر التّعب ثمّ فتحت الباب.

لقد أتى هاينز، ابنها الأكبر، الذي مازالت تراه صغيرًا.

- هاينز، إنّهُ أنت، يا إلهي. كم هو رائعٌ أن تأتي، كم هوَ رائعٌ أن تعودَ إلى البيت، كم مضى من الوقت وأنا في انتظارك، كم أسرنا الخوفُ في انتظاركَ، كم اشتقنا إليك!

- لا تبكي يا أمّي، لا تبكي. هذا أنا.. هذا ابنك هاينز. كيفَ عشتِ من دوني؟

- أنت متجمّدٌ يا بني. سأغلّي لكَ بعض الماء، لا يوجد شيءٌ للأكل، ولكن على الأقلّ، مازال لدينا بعض الماء.

- لا تقلقي يا أمّي، أنتِ تقفينَ بصعوبة، اجلسي. سأغلّي الماء بنفسي.

ساعدها هاينز على الجلوس.

- لقد جلبتُ من ليتوانيا ما تأكلينهُ، انظري، يوجد الكثير من الأشياء!

كانَ يمكنُ لإيفا أن تتحسّسَ الفخر من نبرة صوت ابنها والدّموع تخنقها، الدّموعُ التي تراكمت وارتفعت طيلة الأيّام الماضية ففاضت فجأة من عينيها. كانَ هاينز مفعمًا بالعاطفة.

- أمّي لا تبكِي، نحنُ لسنا في طريقنا إلى الموت، انظري، ثمّة خبزٌ هنا، هناكَ دهونٌ وبعض البصل!

أخرجَ الصّبيُّ كلّ شيء من الكيس القماشيّ ونشرهُ على الصّندوق الخشبيّ الذي كانَ يُستعملُ كطاولة. كانت الدّهون ملفوفة في قصاصات من القماش والورق. وهناكَ خبزٌ وبصل وقطعة من الجبنِ والبطاطا المجمّدة وكيسٌ ورقيّ من الدّقيق وبعض مكعّبات السّكر.

امتصّت إيفا دموعها وقضمت المنديل الذي كانت تضغطُ عليهِ بقبضتها. كلّ ما كانَ يمكنها فعلهُ هو أن تنظرَ إلى ابنها، إلى ابنها هاينز الذي مازال طفلا.

- أمّي لماذا أنتِ متّسخة هكذا، سألَ الابن.

- علينا أن نكونَ هكذا يا بني، ذلكَ ما يجبُ أن يكون.

مازالَ هيلموت نائمًا عندما بدأ يستنشقُ الهواء. اشتمَّ رائحة الطّعام ونهضَ ثمّ وقفَ وفركَ عينيه بقبضتي يدهِ الصّغيرتين ثمَّ نظرَ إلى الطّاولة بعينيه الشّاسعتين وهو متفاجئ، متسائلًا عمّا إذا كانَ ما يراهُ حقيقة أم حلمًا.

لاحقًا نهضت الفتيات. قفزنَ من السرير وعانقنَ هاينز الذي كانَ يقفُ بفخرٍ بجانب الموقدِ كما لو كانَ ربَّ العائلة الحقيقيّ.

نهضت العمّة لوت.

ارتفعَ الضّجيجُ داخلَ السّقيفة الخشبيّة، كانَ الجميعُ مبتهجينَ، تملؤهم الدّهشة أمامَ ما فعله هاينز في رحلته. الجميعُ كانوا يمدحونهُ. أمّا العمّة لوت التي كانت تغطّي عينيها المتورّمتين بوشاحها، فقد ظلّت مشغولة كنحلةٍ، تجذبُ الثّلجَ من الخارج وتذيبهُ على الموقدِ المشتعلِ. لم يحتفظ أحدٌ بما تبقّى من أعواد الخشبِ. فالأطفالُ لتوّهم يتحسّسونَ رائحة الخبزِ والجبن، والآن هم في انتظار الكعك المعدّ من طحينٍ حقيقيٍّ.

بينما يسردُ هاينز حكايتهُ، تشعرُ إيفا أنّهُ يخفي أشياء مريعة حدثت

لهُ، أشياء مرعبة ومؤسفة، أشياء تحطُّ من المرء وتلقي بهِ إلى الهاوية. كم كانَ اللّيلُ مخيفًا، وهوَ يعبرُ بلادًا غريبة في منتصف الشّتاء، وسط غابة كثيفة حيثُ يحرقهُ الجوعُ ويجلدهُ البرد. لا، لم تكن لابنها أيّ علاقة بذلكَ. لا، هو فقط لا يريدُ أن يخيفهم أو يزرعَ الخوفَ في أعينهم. ولكن في المقابل، فهمَ أنّ الأشياء هنا لم تكن سهلة بالنّسبة إليهم، بل ربّما كانت أسوأ. ففي النّهاية، لم يغطِّ السّخام وجه أمّهِ بلا سببٍ، ولوت لم يُعتَدَ عليها بلا سببٍ. لقد بدأ في استيعاب كلّ شيءٍ.

«في البداية طلبتُ أشياء بالرّوسية، طلبتُ منهم الخبز وشرائح من لحم الخنزير. ولكنّهم لم يقدّموا لي شيئًا. نظروا إليّ بارتيابٍ وبعدائيّة وبغضبٍ ثمّ بدأت أتكلّمُ معهم بالألمانيّة. توقّفوا عن مطاردتي. لا أدري ما السّببُ الذي جعلهم يتوقّفون، ربّما لأنّهم جنود مختلفون وربّما لأنّني كنتُ أسألهم بلغة ألمانيّة... بدا لي أنّهم يحترمون الألمان أفضل. طبعًا، كانَ عليّ أن أعمل. لديهم حياة عويصة هناك، أكواخهم صغيرة ومظلمة ومعظمها بلا أرضيّة خشبيّة. تخيّلوا أنّ دجاجاتهم تعيشُ معهم في الدّاخل! لكنّهم أناسٌ طيّبون، وهناك يتوفّرُ الطّعام والخبز والحليب ولحمُ الخنزير ولا أحد يموت من الجوع. هناك يمكنك الحصول على ما تريدُ، سأعودُ إلى هناك وأعود بطعامٍ كثير».

تمكّنوا من سماعِ نبرة الفخر التي كانت في صوتِ هاينز. ابتسمت إيفا.

- سنذهبُ معكَ! سنذهبُ معكَ! قالت الفتيات.

- وأنا، قالَ هيلموت معبّرًا عن رغبتهِ في الذّهاب مع إخوته.

ابتسمت أمّهم ابتسامةً حزينةً وربّتت على رأس هيلموت قائلة: «وإذا رحلت، من الذي سيظلُّ معي هنا؟».

نظرَ هيلموت إلى أمّهِ بفخرٍ ثمّ قرّر قائلا: «نعم، سأظلُّ إلى جانبكِ هذه المرّة، لكن في المرّة القادمة أنا الذي سأذهبُ وسيبقى هاينز برفقتك».

كانوا جميعهم يضحكون، ولكنّهم توقّفوا عندما جهزت المرطّبات التي حضّرتها لوت. أكل الأطفال بشراهةٍ، حتّى إنّ هيلموت استعمل أصابعهُ كي يحشو قطعة كبيرة من فهمهِ.

- لا تسرعوا يا أطفال، لا تسرعوا. بعد كلّ هذه الفترة الطويلة من الجوع ستشعرون بآلامٍ في البطن، قالت لوت:

- لا، الشيء الوحيدُ الذي يؤلمُ بطني هو الجوع. أجاب هيلموت ضاحكًا بينما كان فمهُ مملوءًا.

ذهبَ هاينز للجلوس على السّرير وهو يشاهدُ أمّهُ تبتسمُ قليلًا بينما الأطفالُ يحتفلون بما جلبهُ معهُ. لمحَ أمّهُ وهي تنظرُ إليهِ مبتسمةً، وبعد لحظاتٍ أسقط رأسهُ إلى أسفل وغفا قليلًا. أشارت إيفا إلى الأطفال بألّا يحدثوا ضجيجًا ثمّ غطّت هاينز ببطّانيّة.

فتحَ هاينز عينيه: أمّي غنّي لنا.

- حقًّا، لا حاجة بنا إلى ذلكَ يا بنيّ. ما الأغاني التي عليّ أن أغنّيها؟

- غنّي لنا، غنّي لنا يا أمّي، قالت رينات.

بدأت إيفا حينها تغنّي أغنية حزينة، الأغنية التي تغنّيها أيّ أمّ في أيّ مكانٍ من العالم.

وقفَت رينات في منتصف السقيفة الخشبيّة رافعة ذراعيها وشرعت ترقصُ على إيقاعات الأغنية التي تتسرّب في شفتي أمّها، رقصت رقصة البجعة التي اخترعتها بنفسها.

بدأت عينا هاينز بالذّبول فنامَ.

كانَ الصّباحُ هادئًا وصافيًا، لم تكن ثمّة إشارة إلى العاصفة الثلجيّة التي عصفت البارحة.

في صمت الصّباح، حوّمت أغنيةُ الأمّ وحلّقت بهدوءٍ في الهواء.

كانت الأشهر الأخيرة من الحرب والأحداث التي تلت ذلك صعبةً جدًّا، إلى درجة أنّ الناس وجدوا صعوبةً في تخيّل أنّ كلّ شيء كانت الذاكرة قادرةً على استرداده من الماضي قد حدث بالفعل. يبدو أنّه لم يوجد سلامٌ من قبل، لم تكن ثمّة منازل دافئة وهادئة، ولم يكن ثمّة الكثير من الطعام الجيّد للأكل أو مكان دافئ صالحٌ للعيش. كلّ شيء انهار بسرعة كبيرة، ولاسيّما العلاقات. لم يكن أحد يتخيّل أنّهم سيمشون بهدوء شديد أمام جثث الموتى، لا لأنّهم لا يبالون بالموتى، بل لأنّ البرد لم يعد يعني لهم شيئًا والألمُ كذلكَ. لم يكن أحد يتخيّل أنَّ الناس سيصبحون بمثل هذه اللّامبالاة، أو هذا اليأس الغريب الذي يشبه العبوديّة الممزوجة بالعجز، والاستسلام لمصيرهم، والرغبة في النّوم، والموت. رأت إيفا بأمِّ عينيها كيف أنّ جنود الجيش الأحمر عندما تحرّكوا وبدأت عمليّات الاغتصاب والسرقة والقتل، سار الناس مباشرة إلى نهر نيمان دون أن ينظروا إلى الوراء، مباشرة نحو النهر البارد والمضطرب وأغرقوا أنفسهم. عائلات بأكملها أغرقت نفسها. يا له من كرب، ما هو الألم الذي أصاب أولئك الناس الذين ساروا إلى موتهم. أخذت الأمّهات أطفالهنّ معهنَّ، فغمرتهم المياه، وحمل

النهر أجسادهم نحو البحر. وغمرت مياه نهر اليأس قلوب أولئك الذين تركوا في الخلف. كان الجميع يائسين لإيجاد طرق لمساعدة أسرهم وأطفالهم والبقاء على قيد الحياة، حتّى لا يكون هناك مجال للتفكير أو القلق بشأن جيرانهم ومعارفهم. الجميع يفكّرون فقط في أنفسهم وعائلاتهم.

كانت إيفا مستلقية على السرير الخشبيّ تحضنها بريجيت وتتذكّر حفل زفافها. كيف قابلت مارثا، راقصة الحيّ ومغنّيتهُ، بهذا الصوت الرنّان. أطلق الجميع على إيفا لقب «البرلينيّة» واعتبروها غريبة، بيديها الناعمتين اللّتين لم تعملا في الزّراعة. وجد الجيران من الغريب أنّ رودولف اقترض المال لشراء بيانو لزوجته الصغيرة. لكن على الرغم من هذا، واصلت مارثا حياتها. كان على إيفا أن تتعلّم الكثير من الأشياء في هذه المدينة الصغيرة. أرادت أن تكون زوجة صالحة، وربّة منزل حقيقيّة، لكنّها لم تعرف دائمًا كيف تتصرّف في مواقف معيّنة. كان والد رودولف يمصّ غليونه وينظر إلى زوجة ابنه من خلال عينيه نصف المغلقتين بشكل ساخر إلى حدٍّ مّا، ولكن بتساهلٍ.

طمأن هذا إيفا، لكنّ معرفة أن النّاس كانوا يتحدّثون عنها دائمًا ويسخرون منها من وراء ظهرها لم يكن أمرًا لطيفًا. أحبَّها رودولف، كان سيفعل أيّ شيء من أجلها ويغفر لها أيّ شيء تفعلهُ، لكنّ إيفا كانت تعلم أنّه منزعج من النُّكَت التي أطلقوها عن كونها كسولة ومفسدة. كانت إيفا تبكي أحيانًا في اللّيل

ورودولف يهدّئها، ثمّ يمارسان الحبّ، ويحبّ كلّ منهما الآخر أكثر. كان رودولف دائمًا يقف بجانبها. دافع عنها وعلّمها كيف تسير الأمور دون إصرار أو إجبار. لكنّ زوجها وحده لم يكن كافيًا. لا يمكنك العيش كما لو كنت في جزيرة مهجورة مع رجلك يوم الجمعة. وهكذا دخلت مارثا إلى حياتها: كانت هي التي قدّمت إيفا إلى نادي السيّدات في المدينة وأصدقائها الآخرين، الذين علّموها كيفيّة أداء عمل المرأة في المزرعة، وكيفيّة التواصل مع جيران معيّنين ومع الناس في المدينة. وبفضل مارثا فقط بدأت إيفا تتأقلم، مثل نبتة صغيرة تتأصّل في حياة المجتمع، فأصبحت مارثا مثل أختها.

ثمّ جاءت الحرب التي سرقت أزواجهنّ والرّجال الذين أحبّوهنّ. كان على إيفا ومارثا، مثل كلّ النساء الألمانيّات، العمل في الجبهة، لتقديم يد المساعدة في الحرب، من أجل تحقيق النصر في حرب الرايخ وهتلر. كانت مارثا تضحك طوال الوقت. اعتادت أن تقول دائمًا: «كلّ شيء سينتهي قريبًا، وسوف نتحمّل جميع العذابات ونتجاوزها». كلّما سيطر القلق واليأس على إيفا، شعرت بالخوف على أطفالها ورودولف. كانت مارثا وضحكتها هما فقط ميناء الهدوء ومأواها. تعرّضت إيفا للتعذيب من فكرة أنّ مارثا ساعدتها كثيرًا، والآن هي مستلقية هناك. ربّما لم يكن لدى مارثا ولو مجرّد كسرة خبز صغيرة، فقط لديها قشور من البطاطس التي مضى عليها الأمس. كانت ستتمكّنُ من العثور على طعام، لو لم تقم بإسقاط ما وجدته وهي تحاول الهروب من المغتصبين المخمورين،

رغم تمكنها من العودة إلى المنزل.

«أنا أكذب هنا. أفكّر فقط في نفسي وأولادي. ساعدتنا مارثا حتّى عندما كانت الأمور قاسية بالنّسبة إليها. قدّمت لنا يد المساعدة عندما وصل الجيش الروسيّ وعندما طُردت وأطفالها من منزلهم، وأخذت حيواناتهم منهم، ولم يترك لهم ولو بقرة واحدة ليحصل الأطفال على الحليب».

عندما أخذوا كلّ شيء وألقوا بهم في الخارج - حتّى ذلك الحين، تمكّنت مارثا بطريقة مّا من العيش مع أطفالها بأحد المباني القائمة في المزرعة فترةً من الوقت، لتربية زوج عنزتين حيثُ تقاسمت اللبن مع أطفال إيفا.

نهضت إيفا.

عليها الذّهابُ

عليها الذّهابُ إلى أطفال مارثا.

قالت إيفا: أنا ذاهبة، أنا ذاهبة، لا يمكنني أن أدع اللّامبالاة تنتصر، لا يمكنني أن أتركَ مصيري للشّفقة.

قالت لوت: إلى أين أنت ذاهبة، أنتِ تحتاجين إلى الرّاحة يا إيفا.

- عليّ أن أعثر على طعام لأطفال مارثا.
- أطفالك لا يملكون أيّ شيء ليأكلوهُ يا إيفا.
- ربّما الجنودُ يطاردونها الآن وعليّ مساعدتها. عليّ الذّهابُ

إلى أطفال مارثا.

- سأذهبُ معكِ يا أمّي، قالت رينات.

- لا توقظي هاينز.

- سأذهبُ معكِ يا أمّي، هل تسمعينني؟ سأساعدك، قالت مونيكا.

- ابقوا هنا واعتنينَ بإخوتكنّ يا فتيات. جهّزوا إبريقًا من الشّاي السّاخنِ، سأذهبُ مع لوت.

- سأذهبُ معكِ، قالت بريجيت.

- فلنلّطخ وجوهنا بالسّخام، قالت لوت.

الريح التي هدأت في الصباح الباكر بدأت تهبُّ بقوَّة متجدّدة، محمّلة بغبار ثلجيٍّ ينسابُ من الوحل المتجمِّد، تهبُّ في دوّامات صغيرة. في السّماء الرّمادية المضطربة، ثلاثة طيور ذات ريش أسود تضرب أجنحتها محلّقة وتطير فقط. الطّيورُ فقط تعرفُ إلى أين تحلّقُ ولأيّ غرضٍ تطيرُ.

ثلاثة أشخاص ينحنون ضدّ الرّيح ويتحرّكونَ بأسرع ما يمكن. كانت الطريق مستقيمة ومعبّدةً بالحجارة الخشنة. كان لا يزال لديهم مئات عديدة من الأمتار ليقطعوا هذه الطريق، ثمّ سرعان ما اضطرّوا إلى الانعطاف يسارًا والمرور بورشة قديمة لتمشيط الصوف، وبعد ذلك لم يكن مكان الوجهة بعيدًا.

بصرف النظر عن الطيور المحلّقة في السماء والنساء اللّاتي يمشينَ على الطريق والرياح تعصفُ، كان الأمر كما لو أنّه لا توجد كائنات حيّة أخرى في العالم. بعد طلقات الأمس وصرخاتهِ وصوت الأكورديون، بعد الضجيج الغريب الذي قطع عجز الشتاء الذي لا يمكن فهمه، بدا الأمر وكأنّ الجميع في هدنة، يواجهون الإرهاق. كانت النساء تسيرُ بهدوءٍ. كانت الرياح شديدة البرودة وكان هذا في صالحها، لأنّها دفعت أيّ شخص لا تريد مقابلته في الداخل.

كان من الممكن سماع صوت طنين محرّكٍ آتٍ من بعيد. انحنت النساء بشكل غريزيّ أكثر، وجعلن أنفسهنَّ صغيرات، بحيث يبدون مثل النّساء العجائز الضعيفات، يتجادلن بصعوبة على طول الطريق السريع الشتويّ.

اقترب صوت الطنين. كانت ثمّة شاحنة تسيرُ بتثاقلٍ مثل حشرة ضخمة، الشّكرُ للرّب لأنّها لم تتوقّف بل واصلت طريقها. رأت النساء أنّ الشاحنة كانت مليئة بالناس الذين خيّم عليهم البرد، نصفهم فقط كان على قيد الحياة. كانت تلك الشاحنة تحملهم إلى مكان مّا للعمل. يتمّ الآن استخدام الكثير من الناس لملء الخنادق، لكنسِ ما تبقّى من فضلاتِ الحرب، وصدمات الصّراع. ربّما نُقِل هؤلاء الأشخاص إلى مكان مّا خارج المدينة.

وصلت النساء إلى مفترق الطرق واستدرن يسارًا. لم يكن الأمر بعيدًا الآن: كانت هناك ورشة قديمة لكشط الصوف، تقعُ على

مسافة قريبة قليلاً من المصلّى حيثُ تنبسطُ ساحة السّوق المجاورة لها. خلف مجموعة من أشجار الحور الطويلة كان يقعُ منزل مارثا، أو المنزلُ الذي أضحى الآن منزل مارثا الملحق بمبنى المزرعة.

عندما اقتربت إيفا وبريجيت ولوت، رأينَ الدخان يتصاعد من المدخنة. طمأنهم ذلكَ، يعني هذا أنّ الأمور لا يمكن أن تكون بهذا السوء.

طرقت لوت الباب بعنفٍ.

- إنّنا نحن، إنّنا نحن، قالت إيفا.

فُتِحَ الباب. نظرت جريت، ابنة مارثا البالغة من العمر اثني عشر عامًا وصديقة بريجيت، إلى الزائرين والدّموع في عينيها. انتفخ وجهها. يمكن رؤية علامات الضرب بوضوح.

أدركت النساء أنّهُ كان هناك زوار أثناء الليل. سارعوا عبر العتبة حتّى لا يسمحوا بدخول المزيد من الهواء البارد.

كانت مارثا ترقد بالداخل مباشرة على سرير خشبيّ بجانب مدفأة بدائيّة تشتعلُ فيها النّار، مغطّاة بأكبر عدد ممكن من الطبقات التي يمكن العثور عليها في أماكن معيشتهم. انكمش صبيّاها – ألبرت، الأصغر قليلاً من هاينز،وأوتو الصغير – بجانبها في صمت.

وضعت بريجيت ذراعيها حول جريت. قالت إيفا: «لقد جئنا لك ببعض الأشياء. عاد هاينز من ليتوانيا، وجلب لنا بعض

البطاطس وخبز السمسم والخبز».

كانت مارثا ترقد بلا حراك، وظنّت إيفا لحظةً أنّها ماتت. لكنّ جريت أخذت الهدايا، وسارعت إلى والدتها وقالت: «ماما، لقد جاءت العمّة إيفا، لقد أحضرت لنا شيئًا لنأكله».

رفعت مارثا ذراعها قليلًا، لكنّها لم تكن قويّة بما يكفي لتتحكّمَ بها ولا تتركها تسقط. يمكن سماع صوت صغير من شفتيها لا يكاد يُميَّز.

قالت: «الأطفال... اعتني بالأطفال...».

كانت جريت تبكي وتقسم الطعام بين الأطفال الآخرين وتخصّصُ حصّة لأمّها. كان الأولاد يحشون أفواههم سريعًا بالخبز والدّهون وحتّى البطاطس النيئة.

همست جريت: «اتركوا بعض الطّعام للغد».

اقترب الزّوّار.

- آهٍ يا إلهي، مارثا، سقطت الكلمات من فم إيفا.

- أدارت مارثا رأسها قليلًا. لقد كانت جميلة وفخورة جدًّا، برأس متوّج، بشعر خفيف مجعّد، متوهّج، والآن ما حدث جعلها تبدو قبيحة. لقد تعرضت للضرب المبرّح، ولا يكاد المرء يتعرّف عليها، كانت كلّها منتفخة.

- أمّي، كلي بعض الخبز، قالت جريت في هدوء والدّموعُ في

عينيها.

- هل قبض الجنود عليك، قالت إيفا.

- لا... لم يمسكوا بي... لكنّهم جاؤوا... فيما بعد... العديد منهم... الحمد لله أنّهم لم يلمسوا الأطفال ... ضربوا جريت فقط لأنّها كانت تدافع عنّي.

قالت جريت: «لقد استمرّوا في ضربنا طوال الليل، حتّى الصباح. غطّيت إخوتي بجلد الغنم، وقلت لهم ألّا ينظروا وضغطت رؤوسهم على الأرض، وبكينا، وسمعنا كلّ شيء... ماما، لديّ القليل من الخبز...».

- لا أستطيع، لقد كسروا أسناني، تمتمت مارثا..

- سأخلط الخبز ببعض الماء، سيكونُ طريًّا.

- كلي يا مارثا. لقد جاء هاينز من ليتوانيا وقال إنَّ كلّ شيء متوفّرٌ هناك بالإضافة إلى أنّ الناس كرماء. سيعودُ قريبًا، ربّما ستسمحين لواحدٍ من أطفالك بالذّهاب معه؟

- سأذهبُ مع هاينز إلى ليتوانيا، ستظلُّ جريت مع أمّي لأنّها ستعتني بأمّي وأخي أمّا أنا فسأذهبُ رفقة هاينز، قال ألبيرت.

- كما ترينَ يا مارثا، كلّ شيء سيكون على ما يرام، سيذهب الأولاد إلى ليتوانيا وسيحضرون الطعام وسنعيش وستتحسّن ظروفنا. عليك أن تأكلي يا مارثا، وإلا فلن يتبقّى منك شيء.

- شكرًا لك يا إيفا. دع الأطفال يأكلون، لا أريد أيّ شيء بعد الآن... لقد شبعت. لقد طلبت منهم أن يطلقوا النّار عليّ.

- أ لا تخافين من الله يا مارثا؟ فكّري في أطفالك!

- لم تعد لي طاقة للحياة، لا أستطيع المقاومة... لا أريدُ أن أظلّ على قيد الحياة...

- ما الذي تقولينه يا حبيبتي؟ عليكِ أن تعيشي، قالت العمّة لوت.

- سوف نمزح ونضحك مرّة أخرى. سيأتي الوقت الذي تتفتّح فيه الحقول، وسنضحكُ عندما تنتهي هذه الأيّام العصيبة. سوف ترين ضحكتك يا مارثا، ستنصتين إلى ضحكتك الرائعة وهي تندفعُ بصوت عالٍ جدّا بحيث يُسمع على الجانب الآخر من النهر، قالت إيفا وهي تبكي.

على الرغم من أنها لم تصدّق ذلك بنفسها، فقد كانت تحدّق في فم مارثا المتورّم والممزّق، الأسود من الدم المتخثّر. لم يكن فمًا أصلًا، كانَ مجرّد فجوة بين شفتيها، مجرّدُ جرح.

- لا يا إيفا، لقد قتلوا ضحكتي.

في وقتٍ باكرٍ من صبيحة شتويّة، كان ثمّة قطار بضائع يقف على جسر السكّة الحديديّة، وكانت هناك عربات عديدة تنتظر على الجوانب. حيثُ سيتمُّ توصيلهم بالقاطرة، لأنّ مسارات السكك الحديديّة كانت مختلفة وضيّقة. هناكَ تقعُ ألمانيا، شرق بروسيا (كان يطلق على المنطقة الآن «عرين الوحش الفاشي»). ثمّ يعلقون على القاطرة - آخر عربة أصبحت الآن الأولى - وينتقل القطار عبر نهر نيمان، متّجهًا إلى ليتوانيا على الجانب الآخر من النهر، ثمّ يعبرُ إلى مساحات شاسعة من الاتّحاد السوفيتيّ. كان القطار يتحرّكُ بصعوبة، محمّلًا كعادتهِ بالمخارط والمعدّات الميكانيكيّة والفحم والأثاث العتيق وجميع أنواع الأشياء الأخرى التي شكّلت غنائم حرب. كانت هناك أيضًا عربات الماشية التي سيعود فيها جنود أنهكتهم الحرب إلى ديارهم - سيكونون قادرين على العيش، بعد أن انتهى جحيمُ الحرب، هذه الحرب التي أودت بحياة الملايين. سيكونون قادرين على العيش الآن. عسى الله أن يحدث ذلك، فلن ينتهي بهم الأمر في معسكرات العمل، وعند عودتهم سيجدون

أقاربهم أحياء، ومنازلهم لم تحرق، لقد وعدهم الرّبُّ بذلكَ.

كان ثمّة شخصان صغيران ينزلان على التلِّ من اتّجاه المدينة. سقطوا في الثلج، ولفترة من الوقت شاهدوا طفلًا يمتطي القطار، والجنود ورجال السكك الحديديّة يتجاذبون أطراف الحديث، والنساء مع حزمهنّ يطلبن أن يُصطَحَبن إلى ليتوانيا، وربّما أبعد من ذلك. ثمّ نهض الأولاد (هم هاينز وألبرت ابن مارثا) من الثلج. كان أحدهم يتخبّط في دبّابة صغيرة محترقة ومخرّبة، فلوَّح للآخر طلبًا للمساعدة. هرع ألبرت وساعده في إخراج قطعة مجمّدة من القماش المشمّع. ثمّ انتظروا. بدا الأمر كما لو أنّ هؤلاء الجنود الذين يدخّنون على الجسر لن يختفوا أبدًا، لكنّهم فعلوا ذلك في النهاية. قال هاينز: «الآن!» وهرعوا إلى القطار بأسرع ما يمكن، حاملين معهم القماش المشمّع.

ركضوا نحو إحدى العربات، ونظروا حولهم بعناية واختبؤوا خلفها. كان الرجل الذي اعتنى بالقطارات يفحص شيئًا مّا، ينقر بأداة خاصّة، ويمشي على طول جانب القطار.

انتظر الأولاد قليلًا حتّى ابتعدَ، وتسلّقوا عربة محمّلةً بالفحم.

وباستخدام قطع من الخشب وقطع الحديد المسطّحة التي أخذوها من حقائبهم، بدؤوا بهدوء يحفرون الفحم. لقد كان عملًا شاقًّا باستخدام الأدوات التي بحوزتهم، لأنّ الفحم تجمّدَ إلى قطع كبيرة؛ لكنَّ الأطفال كانوا مصمّمينَ، وبمجرّد أن تمكّنوا من حفر كمّيّة يعتقد هاينز أنّها كافية، وضعوا قطعة القماش المشمّع وطووها

إلى نصفين.

الآن يمكنك الاستلقاء. همس هاينز في أذن ألبرت: «ادخل».

استلقى ألبرت على القماش المشمّع وغطّى نفسه بالنصف الآخر.

قال صديقهُ: «حاول الاستلقاء بلا حراك لأطول فترة ممكنة»، ثمّ بدأ يسكب الفحمَ فوقهُ حتّى غطّى القماش المشمّع كلّه.

- ألبيرت، ارفع القماش المشمّع. ارفعه.

- أنا أرفعهُ، أنا أرفعهُ.

بدا صوته وكأنّه قادم من جوفِ الأرض. رفع ألبيرت إحدى الحوافّ. ساعده هاينز، ثمّ تسلّق عبر الفجوة واستلقى بجانبه تحت القماش المشمّع المغطّى الآن بالفحم.

- الأمرُ صعب جدًّا، قال ألبيرت.

- المهمّ بالنسبة إلينا أن يتحرّك القطار وأن نغادر هذا المكان، ثمّ سنتمكّنُ من الخروج من تحت القماش المشمّع. لكنّ الجوّ سيكون باردًا جدًّا.

تحاضن الأطفال وقذف الهواءُ الخارجُ من أنفاسهم بعض الدّفء. كانوا ينصتونَ إلى ضحكاتِ مجموعة من الأشخاص وسرعانَ ما انتهى كلّ شيء. ثمّ انبعث صدى مرور مجموعة كبيرة من الناس قبل أن يخيّم الصّمتُ مرّة أخرى.

تحرّك القطارُ أخيرًا.

فبدأت عجلاته تتحرّك بشكل أسرع وأسرع.

قال ألبرت: «نحن أخيرًا في طريقنا إلى ليتوانيا. هل لديهم حقًّا كلّ شيء هناك؟».

- سوف ترى. الآن، لا تطرح المزيد من الأسئلة. دعونا نحاول الحصول على قسط من النوم، فربّما نتمكّن من أخذ قيلولة لبعض الوقت.

كان القطار الذي يقلّ الأولاد إلى ليتوانيا يمرّ عبر الحقول الشتويّة، ويتأرجح حول تلٍّ صغير، ويعبر النهر ويختفي في نفق.

لقد تعبت رينات. كانت تجلس على عجلة كبيرة في شاحنة قديمة، تتنفّس بصعوبة وتشاهد الأطفال يلعبون - مونيكا وهيلموت، وذلك الصبيّ. كانوا يرمون كرة، يلعبون لعبة جديدة كان الصبي، صديقهم الجديد، قد علّمهم إيّاها باستخدام الإيماءات وبعض الكلمات غير المفهومة. لقد حضر قبل أسابيع عديدة. لقد جاء من بعيد، من روسيا، واستقرّت عائلته في منزل القسّ القديم. كان المنزل في يوم من الأيّام كبيرًا، ولكن في نهاية الحرب دمَّرت قنبلة جزءًا منه وقتلت القسَّ. عائلته، مثل عائلات أخرى عديدة، استولى عليها خوف لا يمكن السيطرة عليه فخرجت وهربت إلى عمق ألمانيا. ظنّوا أنّهم يستطيعون الهروب من اقتراب الجيش الأحمر. من كان يعلم أين هؤلاء اللاّجئون الآن؟ لكن رينات لم تكن تفكّر في ذلك، كانت تنظر إلى أختها وشقيقها والصبيّ الروسيّ. لم يكن اجتماعهم الأوّل في غاية الإمتاع، لأنّه بدا عدوانيًّا؛ لقد هاجم هيلموت وأسقطهُ على الثلج وضغط وجهه على الأرض الجليديّة بينما كان يصرخ بشيء مّا. هرعت رينات لمساعدة شقيقها، لكنّ الأطفال الجائعين ليس لديهم الكثير من الطاقة. لحسن الحظّ، كانت بريجيت قريبة. لقد لقّنت ذاك الروسيّ

الصغير درسًا. كان هيلموت مصابًا برضوض في شفته، لكنّه قال إنّه كان هجومًا مفاجئًا، وغير متوقّع، وإلّا لكان لقّن ذلك الرّوسي درسًا قاسيًا. أدركت رينات أنّ هيلموت يشعر بالفشل. هكذا كان ردّ فعل الأولاد عندما يخسرونَ معركة. لم يكن سببُ الخلافِ واضحًا، لأنَّ الصبيّ لم يكن يعرف اللّغة الألمانيّة ولا الروسيّة. في البداية، لم يكونوا قريبين بعضهم من بعض، لكنّ صداقتهم توطّدت شيئًا فشيئا، عندما أعطتهم والدة الصبيّ بعض الخبز. كانت والدته امرأة جميلة المظهر ذات وجه حزين. قال الصبي: أبي مكسورٌ. عندما كانَ يتّصلُ، كانت المرأة تصرخ «بوريس، بوريس!»، وهكذا بدأ الأطفال أيضًا في مناداته بذلك الاسم.

كانت رينات جالسة، تنظر إلى الأطفال الآخرين وإلى الثلج، في النهار المظلم. كان المساء ينسحبُ ببطء، والظلال تطولُ. كانت تعلم أنّه ما يزال هناك بعض الطعام الذي أحضره هاينز في المنزل. كانت تشتهي قطعة من الخبز مع الزبدة. لقد نسيت بالفعل طعم الزبدة، وعلى الرغم من أنّها حاولت جاهدة أن تتذكّر، فإنّ الأشياء الوحيدة التي يمكن أن تتذكّرها هي دفء منزلهم وسعال جدّهم، وكيف كان ينحت صفارات بسكّينه الحادّ. أوه، لو كان هناك بعض الخبز والزبدة الآن، شريحة كبيرة، أو حتّى صغيرة، أو نصف شريحة فقط. يا ربّ، ألن يكون هناك حقًّا خبز وزبدة مرّة أخرى؟

ترك الأولاد الكرة في الثلج وصعدوا إلى شاحنة واقفة مهجورة في الفناء مثل حيوان مصاب أو ميّت. لم تكن بها عجلات، وكان

أحد أبوابها مخلوعًا. كان هناك الكثير من الآلات المهجورة والمكسورة الآن: شاحنات لا تعمل، ودبّابات تعرّضت للقصف وتحطّمت إلى أشلاء، وقطع من الحديد، لم يكن لدى الأطفال أيّ وسيلة لمعرفة الغرض منها. تخيّل الأولاد أنّهم كانوا يقودون سيّاراتهم وهم يتعرّضون لإطلاق نار؛ اختبؤوا في مؤخرة الشاحنة حاملين العصيّ التي تظاهروا بأنّها بنادق. صعد بوريس إلى المقصورة، وجذب عجلة القيادة وأدارها زمنًا، فأصدر المحرّكُ بعض الضوضاء، وقفز إلى أعلى وإلى أسفل. كانت سيّارته تطلق صفيرًا في حقول الحرب، وتطلق النار على الفاشيّين، وتناور عبر أعمق المنخفضات الأرضيّة وصولًا إلى قمّة أعلى المنحدرات.

كانت مونيكا قد تسرّبت إلى مبنى نصف مهدّم واختفت لبعض الوقت. ثمّ، فجأة، ظهر وجهها السعيد، وصرخت: «رينات، تعالي إلى هنا، وانظري ماذا وجدت!» ذهبت رينات وشقّت طريقها عبر العوارض الخشبيّة الملقاة على الأرض. لم يكن للمنزل سقف وكان هناك ثلج بالداخل، ولكن كانت هناك أيضًا ألواح خشبية، فتذكّرتا أنّهما بحاجة إلى الحطب للموقد. فكّرت رينات ثمَّ قالت: دعينا نأخذ بعض الحطب ونعود إلى المنزل بسرعة، ستكون العمّة لوت قد طبخت بالفعل شيئًا ممّا أحضره هاينز. وربّما حصلت ماما على شيء من مقصف الجنود. قيل للأطفال ألّا يعودوا قبل ذلك، لأنّهم عندما كانوا في المنزل وعرفوا أنّ هناك بطاطس وخبزًا، أرادوا أكلها، وهذا الأمرُ جعلَ لوت تفقد صبرها. قالت: «اذهب

وأحضر بعض الحطب. ولا تسرعوا في العودة، سأطبخُ شيئًا لنأكلهُ، ولكن في المساء فقط». كانت رينات تتساءل: هل حان المساء بعد؟ كانت السماء تتحوّل إلى اللّون الأزرق الداكن، وهذا يعني أنّ المساء قد خيّم الآن.

قالت مونيكا، وهي ترفع غطاء خشبيًّا: «انظري». كانت هناك أشياء معدنيّة مختلفة وأسلحة متكدّسة تحتها. التقطت مونيكا مسدّسًا وفعلت شيئًا له وفجأة كان هناك صوتٌ يصمُّ الآذان فسقطت البندقيّة من يد الفتاة. كانت خائفة، لم تستطع التنفّس، يداها ترتعشان. قالت لرينات: «لقد تحسّستهُ يدى».

- هذه أسلحة حقيقيّة. نعم، حقيقيّة. لا يزال الصوت يرنُّ في أذني!

- ظهر الأطفال وقد جذبهم صوت إطلاق النّار.

- من أطلقَ النّار؟

- مونيكا.

- مونيكا؟

- انظروا.

رفعت مونيكا الألواح. صفّر بوريس، فلاحت شرارات حادّة مؤذية في عينيه. أخذ آلة أوتوماتيكيّة ووضعها حول عنقه. كانت ثقيلة جدًّا إلى درجة أنّها كانت تسحبه إلى أسفل. صوّبَ الصّبي

نحو جدار القرميد وضغط على الزناد. تناثرت شظايا الطين في كلّ مكان، وكان الصوت عاليًا إلى درجة أنّ الأطفال انكمشوا وأغلقوا آذانهم.

كان بوريس يضحك. إنّه سعيد. كان يحبُّ الأسلحة، ويستمتع بإطلاق النار. أظهر للأطفال الآخرين كيف تسبّبت الطلقات في اهتزاز يديه فضحك مرّة أخرى، لقد كان سعيدًا جدًّا. سحب الزناد مرّة أخرى. عندما خفتت الضوضاء، صرخت رينات: «ضع المسدس أرضًا! لا تطلقوا النار مرّة أخرى! إنّ صداها يؤذي الأذن، لكن بالطّبع لم يفهم بوريس كلامها. وحتّى لو فهمها، لم يكن على وشك الاستماع إلى فتاة ألمانيّة.

ظلّت رينات ومونيكا في الخارج. كانت الكرة ملقاة على الثلج. ركلتها مونيكا وقالت: «ما كان يجب أن أظهر تلك الأسلحة لأيّ شخص».

بقي الأولاد بالداخل. لم يعد أحد يطلق النار. قالت رينات: «هيلموت، هيلموت! لنعد إلى المنزل، فلنأخذ بعض الألواح الخشبيّة ونعود إلى المنزل».

أجاب هيلموت: «دقيقة فقط!» ثمّ خرجوا حاملين مسدّسات وشيئا آخر. هذا الشيء الآخر كان عبارة عن حفنة من القنابل اليدويّة.

قال بوريس: «قنبلة، قنبلة».

قالت مونيكا في غضبٍ: «هيلموت! دعها جانبًا».

ردّ هيلموت بعنفٍ: «لا تأمريني؟».

قالت رينات: «سأخبر ماما بكلِّ شيء وسترى عقابكَ بعد ذلكَ».

قال هيلموت: «أغلقي فمك، أيّتها الحمقاء».

ألقى بوريس كلّ شيء في كومة، وأخذ المسدّس، واستدار إلى مونيكا وبدأ بالصراخ: «أياديكم إلى أعلى! أياديكم إلى أعلى!».

قالت مونيكا بحزم: «ضع المسدس أرضًا»، لكنّ بوريس لم يفهم ما قالته. التفت إلى الشاحنة التي ليس بها عجلات وضغط على الزّناد. اهتزت البندقيّة في يديه وأطلقَ رصاصة فدوّى الضّجيجُ، مصحوبًا بضوَضاء مروّعة. صوّب بوريس مباشرة على النّوافذ وواصل إطلاق النّار حتّى لم يتبقّ المزيد من الرّصاص. ألقى السّلاح في الأسفل، وكان صوت الرّصاص يطنّ في آذان الجميع. كانت الفتيات خائفات، لكنّ بوريس كان سعيدا، راضيًا، كما لو أنّه ممسوس بالنشوة البرّيَّة.

كان هيلموت يحاول متابعة صديقه؛ كان يضحك أيضًا، على الرغم من أنّ قلبه ربّما كان أيضًا مليئًا بالخوف. لم يكن يريد أن يطلق بوريس النار بعد الآن، ولكن بأيّ حال من الأحوال كان سيظهر أنّه خائف مثل الفتاة. كانت الشاحنة تراقب الأطفال بفتحات عيون فارغة، إذ كانت ذات يومٍ جدارًا يقفُ في وجهِ

الرّيح.

توقّف بوريس عن إطلاق النار. كان يجمع تلكَ الأشياء المبعثرة. ويحمل الألواح الخشبيّة وهيلموت يساعده. جلبوا حفنة من التبن القديم وبقايا قماشٍ، وألقوا بها على الكومة. أخرج بوريس عود ثقاب وأشعل النار فيها. كانت الشعلة شديدة السّطوع. نزل الظّلامُ تدريجيًّا وخيَّمَ فوق كلِّ شيء، ودفّأت الفتيات أيديهنّ بالنّار. كان بوريس يقول شيئًا مَّا، ثمَّ قادهم بعيدًا. أشار إليهم بالاستلقاء في مكان محميّ، ثمّ عاد، والتقط قنبلة يدويّة، وألقى بها في النار، وركض سريعًا عائدًا إلى الفتيات. لم يفهم هيلموت حقًّا ما كان يحدث. بدأت رينات بالصراخ: «هيلموت، هيلموت، تعال إلى هنا، بسرعة، اركض!» كانت مونيكا أيضًا تصرخ: «اركض، هيلموت!».

لكن الصّبيَّ، غير متأكّد ممّا يجب فعله، لم يتحرّك ولم يكن يريد أن يبدو جبانًا أو أن يكونَ مغفّلًا. لم يستطيع معرفة سبب طلب شقيقاته والصبيّ الروسيّ له أن يختبئ، لذا غمز ووقف هناك يحدّق حولهُ.

صرخت مونيكا نحوهُ: «اركض أيّها الأبله، تعالَ إلى هنا الآن».

أجابها أخوها: «لستُ أبله».

صرخَ بوريس: «قنبلة، قنبلة! ستنفجرُ بعد لحظات! ستنفجرُ بعد لحظات!».

على الرغم من أنّ هيلموت مازال لا يصدّقهم تمامًا، فإنّه بدأ أخيرًا في السّير باتّجاههم. لكنَّه كان يمشي ببطء، يجرُّ قدمًا تلو أخرى. كانت الفتيات غاضبات من أخيهنّ الأبله.

أخيرًا، استلقى هيلموت خلف كومة من الحجارة.

كانوا على بعد عشرين أو ثلاثين مترًا من النار.

انتظروا.

مضى الوقتُ.

لم يكن هناك انفجار.

كان بوريس يرفع رأسه من حين إلى آخر لينظر، لكنَّ النّار كانت لا تزال مشتعلة ولم يحدث شيء. مرّت الثّواني ببطء وكانَ البردُ يأسرهم وهم مستلقون هناك على الثّلج.

قالت مونيكا: «ربّما لن تنفجر».

سأل هيلموت: «من قال لك إنّها قنبلة؟ كيف يعرف ذلك الرّوسيّ أنّها قنبلة؟ ربّما تكون مجرّد قطعة حديديّة».

بعد نفادِ صبره، أخذ بوريس حجرًا وألقاه في اتّجاه النار، لكنّهم كانوا بعيدين جدًّا، كان من الصعب أن يكون دقيقًا فسقط الحجر على بعد حوالي متر واحد من موضع النّار. ثمّ ألقى هيلموت قليلًا من الطوب، الذي سقط على مقربة من النّار المستعرة.

مرّ الوقت فأسدلت الظلمة ستائرها. نهض بوريس من مأواهم

والتقط عصا طويلة واقترب بحذر. كانت النّيران متوهّجة، ويمكن رؤية القنبلة بوضوح وسطها. لكن ربّما لم تكن قنبلة، لعلّها مجرّد قطعة حديديّة. مدّد بوريس العصا الطويلة بحذر، محاولًا النّقر على الشيء الملعون، الذي رفضَ الانفجار.

لكنّهُ لم يصل إلى القنبلة.

كان الانفجار مدمّرًا. بدا لرينات أنّها قد نامت لحظةً واستيقظت الآن. كان الدّخانُ يدور حول المكان. تلاشى الطنين من رأسها تدريجيّا. كان هيلموت يهمسُ بشيءٍ مّا. أنصتت رينات ببطء – كانت تسمع شقيقها يتأوّه: «ماذا سيحدث الآن؟ ما الذي سيحدث الآن؟». صرخت مونيكا: «أغلق فمك، أيّها الأحمق!». جلست رينات، وشعرت بدوارٍ على غير العادة.

اقترب الأطفال من النار ورأوا أنّها لم تعد موجودة لا هي ولا بوريس. كان الأمر كما لو أن شخصًا مّا قد نفخ الرّماد من راحة يد كبيرة. لم يكن هناك سوى الأرض. دائرة أنيقة في الثلج، حفرة ضحلة، ولا شيء غير ذلك. بعيدًا قليلًا، كان هناك شيء يشبه الدم وقميص، ربّما قميص.

قالت مونيكا: «انظري».

في الثلج المداس، الممزوج بالسّخام والتّراب، وُضع جسم غريب. جسمٌ شبيهٌ ببعض الحيوانات المتوحّشة، التي تمُدُّ أرجلها الصغيرة حولَ المكان.

فهمت رينات. لقد كان ذلك الجسمُ هو يد بوريس.

حدّقوا في أياديهم وشعروا بفراغ ينمو بداخلهم ويقضمهم من الدّاخل، حيثُ تغرقُ أصواتهم وأنفاسهم. لقد كانت حقّا يد الصّبي. بدت شاحبة بشكل رهيب، كما لو كانت مصنوعة من البلاستيك.

مرّت لحظات لا تنتهي. فجأة أدركت رينات ما يتعيّن عليهم فِعله. انحنت ورفعت يدها وخرجت من الفناء المهجور دون أن تقول أيّ شيء. تبعتها مونيكا وهيلموت. رينات لم تتّجه نحو المنزل. حثت خطواتها الصغيرة، بدت خطواتٍ مسرعة إلى درجة أنّها كادت تنزلق في الثلج. ذهبت إلى حيث لا يريد الأطفال أن يكونوا. لم يرغبوا في الذهاب إلى هناك، لكنّهم تبعوا أختهم التي بدت كما لو أنّها منوّمة مغناطيسيًّا.

هنا كان منزل القسّ الذي دمّر أحد طرفيه بقنبلة سقطت من السّماء. كان هناك ضوء مشتعل في الغرفة الأماميّة، أعيد تشغيل الكهرباء مرّة أخرى. توقَّفت رينات عندما وصلت إلى حافّة دائرة الضوء، وتوقّفت مونيكا وهيلموت خلفها. وقفوا ونظروا إلى رقاقات الثلج التي كانت تتطاير حول المصباح مثل الذباب الصغير. أصبحت الرّياح أقوى، ممّا جعل المصباح يتأرجح في نهاية سلكه السميك. كان الحاكي يلعب داخل المنزل، وكان أحدهم يضحك، والآخر يروي قصّة، وربّما بعض النُّكت. كانوا يشربون الفودكا أو زجاجة نبيذ مسروقةً.

في الخارج، كانت الرّياح أقوى وأقوى.

تقدّمت رينات إلى الأمام نحو الضوء ووضعت يد بوريس الميّتة على الشرفة الأماميّة، أسفل المصباح مباشرة. انتظرت لحظة، ثمّ اختفت في الظلام.

سارعت أختها وشقيقها وراءها.

ساروا دون أن يتكلّموا. لقد ضاع كلٌّ منهم في أفكاره الخاصّة، لكنّهم كانوا جميعًا يفكّرون في ما حدث للتوِّ.

حول بوريس.

كيف يشرحون لوالدتهم أنّهم كانوا يطلقون النار من البنادق ويطلقون النار من سلاح آليّ، بدلًا من إحضار الحطب إلى المنزل للموقد، وإنّ الأخبار السّيّئة هي كلّ ما كانوا يحملونها إلى المنزل؟

اعتقدت رينات أنّهم كانوا في حلم غريب، ربّما في عالم آخر تمامًا، مثل الفتاة التي ذهبت تحت الأرض والتقت بشخص يرتدي قبّعة عالية وأرنب يلعب الشطرنج. كان هناك ممرٌّ للانتقال من منزل القسّ القديم إلى مخزن الحطب، وقد باغتهم اللّيل أخيرًا. كان من الصّعبِ تمييز العمود الخشبيّ أو السيّارة المعطّلة من شخص حيّ، لكنّ الأطفال سارعوا إلى الركوب. كانوا يعرفون مدينتهم تمامًا، رغمَ ما آلت إليه، بالمباني التي انهارت أو احترقت أو دمِّرت. ففي النّهاية، كانوا يتجوّلون كلّ يومٍ بحثًا عن الحطب، وأيّ شيء آخر قد يكون مفيدًا لوجودهم البائس حينها.

أخيرًا، وصلوا إلى منزلهم وتوقّفوا على مسافة غير بعيدة من سقيفة الخشب. كان عليهم مناقشة ما سيقولونه لأمّهم، وماذا ستكون قصّتهم. لكنّ ما حدث كان فظيعًا إلى درجةٍ عرفوا معها أنّهم لن يكونوا قادرين على الكذب.

دخل الأطفال وذهلوا ممّا رأوه. كان منزلهم ممتلئًا بشكل غير متوقّع. كانت جارتهم مارثا مستلقية على ظهرها فوق السّرير وتنظر إلى السّقف المنخفض.

همست مارثا بشفتيها المتورّمتين: «لا يمكنني الاستمرار، لا يمكنني الاستمرار». كان وجهها منتفخًا، وعيناها لا تكادان تظهران.

قالت العمّة لوت بصوت منخفض: «جيّد، لقد عدت أخيرًا إلى المنزل. لدينا ضيوف. سنعيش معًا. ستكون هذه الغرفة ضيّقة، لكن على الأقلّ ستكون أكثر دفئًا». حاولت العمّة لوت الطّيّبة المزاحَ. كانت جادّة جدًّا وصارمة، ومع ذلك تمتلئ عاطفةً مع أيّ شخص عانى من بعض المحن. وقد عانى الجميع في الوقت الحاضر من بعض المحن.

أوضحت بريجيت للأطفال: «لقد طُرِدوا من أماكن معيشتهم، تخيَّل فقط، لقد أوصلوا جرّارا وسحبوه إلى أسفل. ربّما ليس عن قصد، ربمَّا كانوا في حالة سكر. من حسن حظّهم أنّهم لم يقتلوهم».

قالت جريت: «طَرَدنا الجنود، وأمرونا بالخروج. قالت ماما إنّنا

يجب أن نأتي إلى هنا. هي لا تكاد تستطيع المشي. سحبتها أنا وأوتو إلى هنا على المزلجة».

أغمضت مارثا عينيها وهي تئنّ وتستلقي بطريقة غريبة.

قالت جريت من خلال دموعها: «إنّها تتألّم، إنّها تتألم طوال الوقت. ماما، حاولي أن تتماسكي، ماما، أمّي العزيزة، إذا كان بإمكاني تحمّل ألمك ...».

كان أوتو جالسًا بجانب والدته المعذّبة مثل بومة صغيرة بأذنين متدلّيتين.

قالت مارثا وهي تتألّمُ: «لا يمكنني الاستمرار، لا يمكنني الاستمرار...».

همست إيفا: «كيف يمكنهم طردك، كيف يمكنهم طردك».

- إنَّهم قادرون على فعل أيِّ شيء.

سكبت إيفا السائل الساخن في كوبٍ. كانت تغلّي بعض سيقان التوت، ورائحة شاي توت العلّيق تنجرف في الهواء.

- سنعيشُ جميعًا هنا وسنتدبّرُ الأمر، علينا فقط المحاولة، من أجل الأطفال. قالت وهيَ تضعُ كوب الشاي الدافئ على شفتي مارثا. اشربي، اشربي الشاي، سوف يدفئك قليلًا، أيّتها المسكينة، نامي قليلًا، نامي قليلًا...

نظر الصَّبيُّ إلى والدته ولم يقل أيّ شيء. كان الأمر كما لو أنّه لم

يكن هناك.

طبخت لهم العمّة لوت شيئًا يأكلونه من الطعام الذي أحضره هاينز، وعصيدة من قشور البطاطس المجفّفة، عصيدة أو حساء، أطلق عليها ما تريد. حمل الجميع أوانيهم حيثُ وضعت لوت الطعام بحبٍّ لأطفالها وأطفال إيفا، وكذلك مارثا.

نظرت رينات إلى أوتو وهو يلتهم الطّعام، وهي تفكّرُ: أعاد هاينز الطعام لنا، والآن جريت وهذا الخنزير الصغير سيأكلان كلّ شيء.

في تلك الليلة، رأت رينات حلمًا: رأت رواق القسّ العجوز،حيثُ كان ضوء كهربائيّ ساطع يسطع على الأرض، وحيثُ انتشرت نُدَفُ الثلج التي كانت تتساقطُ وهي ترقصُ في دوائر قبل أن تنهض وترتفعَ مرّة أخرى. سمعت ضجيجًا من ضحك وموسيقى. كانت يد بوريس البيضاء المثاليّة مستلقية على الأرضية الخشبيّة، وفجأة تحوَّلت إلى زهرة من النوع الذي لم تره من قبل، زهرة برائحة حادّة، كريهة ومبهمة. بدأ الثلج يذوب من أثرِ الرائحة. ولكن بعد ذلك ظهر كلب جائع طاعنٌ في السّنِّ برزت عظامه. بطريقة مّا تجنّبَ الوقوع. وضعَ الكلب يد بوريس بين أنيابه وحملها ثمَّ اختفى في الظلام الدّامس.

كانت الحشرات البيضاء الصّغيرة تدور في الهواء.

سار الأولاد بخطًى سريعة على ضواحي الغابة. كان كلّ شيء هادئًا، باستثناء صوت النعيق القويّ من وقت إلى آخر. تقدَّم هاينز في المقدّمة بينما حاول ألبرت السّيرَ جاهدًا حتّى لا يتخلّف عن الرّكب. بالأمس، بعد رحلتهم المروّعة للاختباء في عربة الفحم، وجدوا أنفسهم أخيرًا في ليتوانيا. لم يكن هذا ما توقّعوه على الإطلاق، كانت هذه هي المرّة الأولى التي ينزل فيها هاينز من القطار في ذلك المكان بالذات، ولم يكن لديه أدنى فكرة عمّا ينتظرهم. كان يشعر بالأسف لأنّهُ ترك القماش المشمّع خلفه في العربة. كان بإمكانهم فعل ذلك الآن، لكن عندما توقَّف القطار وخرجوا من مخبئهم البارد، رآهم عامل سكّة الحديد فبدأ بالصراخ بلغة غير مفهومة وهو يلوّحُ بذراعيه. هرب الأولاد بأسرع ما يمكن، وهم يجرون على الرغم من تخدير أرجلهم من البرد. كانت لديهم أفكار أخرى. لكنّهم كانوا مدفوعين بالخوف والرغبة في البقاء على قيد الحياة بأيّ ثمن. عندما توقّفوا أخيرًا لاستعادة أنفاسهم، سقطوا في جبالٍ من الثّلوج التي تقعُ خلف الأدغال على حافّة الغابة، لم يعد بإمكانهم سماع أيّ شيء سوى أنفاسهم ودقّاتِ قلوبهم النابضة. يبدو أن لا أحد يطاردهم.

سألَ ألبرت: «هل نحنُ في ليتوانيا».

كانوا في ليتوانيا طبعًا، لكن لم يعرف أيّ منهم إلى أين يتّجهون الآن.

بعد مناقشة وجيزة، قرَّروا الذّهاب في الاتّجاه المعاكس للشمس.

ساروا فترة طويلة. في النّهاية وصلوا إلى طريق، لكن لم تكن هناك بلدة صغيرة أو حتّى قرية، فقط غابة. وسرعانَ ما انتهت الغابة فواصل الأولاد طريقهم،حيثُ كانت هناك حشرات سوداء صغيرة في حقول بيضاء لا نهاية لها.

في النهاية بدأ الظلام يُسدلُ ستائرهُ. كان الأطفال يخافون من عدم إيجاد مكان للنوم. بالتأكيد لن يضطرّوا إلى الاستلقاء في الثّلج؟ لكنَّهم وصلوا أخيرًا إلى مزرعة، حيثُ غَمَر الظّلام المنزلَ الذي يقعُ فيها، وجُرِفَ الثَّلج في الفناء. كان بإمكانهم رؤية النّاس المقيمين هناك. ومع اقتراب الأولاد، سمعوا نباح كلب حراسة استقبلهم بشدّة، وكشّرَ على أنيابه وهو يحاول التحرّر من أغلالهِ. بدا المنزل كئيبًا ومشؤومًا، كما لو كان وكرًا للُّصوص، لكن لم يكن هناك شيء آخر يمكنهم فعله. طرق هاينز الباب. لم يكن هناك ردّ على المكالمة ولم يفتح أحد، لذا طرق ثانيةً، ولكن هذه المرّة بقوّة أكثر.

سمعوا صوت رجل غاضب. لا شكّ أنّه كان يستمع إلى الجانب الآخر من الباب المغلق، ويتساءل من الذي وجد طريقه إلى هنا

وماذا يريدُ. تحدّث هاينز باللّغة الألمانيّة، لكنَّهُ أدخل بعض الكلمات اللّيتوانيّة التي تعلّمها، موضّحًا أنّهم ضاعوا وتجمّدوا من البرد وأنّ كلَّ ما أرادوه هو الشُّعور بالدِّفء. انفتح الباب أخيرًا، وكُشِفَ عن رجل قصير عريض الكتفين ذي شعر أسود، وملامح قاتمة على وجهه. كانت عيناه تتألَّقان على ضوء لمبة الجاز. رفع الرَّجل اللّمبة، وأضاء وجوه الأولاد. ظلَّ صامتًا لبعض الوقت، ثمَّ قال: «لا توجدُ لدينا غرفةٌ، لا توجدُ غرفة شاغرة هنا».

بدأ هاينز بالتّوسّل. كان عازمًا على تغيير رأي الشّيطان نفسه،إذا كانَ سيسمحُ لهم بقضاء اللّيل رفقتهُ. ولكن سرعان ما سمعوا صوت امرأة جاءت لترى ما يحدث. أغلق الرجل الباب في وجوههم، وعرف الأولاد أنَّهم لن يجدوا مأوى هناك. سيتعيَّنُ عليهم المضيّ قدمًا والنّوم في الغابة، وربَّما سيحاولون إشعال النَّار وقضاءِ اللّيلة الباردة بطريقة مّا. غدًا سيتقدَّمون ويكملون طريقهم، سيسيرونَ على أملِ أن يعثروا على بشرٍ آخرين تورقُ الرّحمة من أفئدتهم. بعد لحظةٍ، فُتِح الباب مرّة أخرى بشكل غير متوقّع ودعتهم المرأة للدخول. لم يكن الأولاد في حاجة إلى أن يُسأَلوا مرَّتين.

كانت الغرفةُ في الدّاخل خانقةً، ولكنّها دافئة. تحدَّثت المرأة كثيرًا، مفسّرةً شيئًا بصوت منخفض، كما لو أنّها لا تريد إيقاظ أحد. أومأ الأولاد برؤوسهم، ولم يستوعبوا الكثير من كلامها لكنّ الرّجاء كانَ يملأ قلوبهم بألّا يخيّبوا ظنّها. لم يكن هناك متَّسع كبير

بالداخل، وكان يُعرض على المسافرين مقاعد للنوم. لم يكن هناك أيّ فراش لهم، لكنّهم حصلوا على جلد غنم ومعطف قديم. كان الأولاد متجمّدين من البرد والتّعب. احتضنهم الدفء، وغلبهم النَّومُ بسرعة فناموا. عندما غفا هاينز، سمع ضحكًا وبعض الهمسات الهادئة والمرحة، التي تحوَّلت بعد ذلك إلى حلم. كان يجلس في مرج ضخم فارغ ينتظر جدّه. ظهر، لكنَّ ساقيه كانتا ساقَي حصان. كان يخدش الأرض ويمسك بماسورة بين أسنانه. المجاعة قادمة، المجاعة قادمة. يبدو أن جدَّه - نصف إنسان ونصف حصان - كان يقول شيئًا مّا، بدا وكأنَّه يصهلُ، وأراد هاينز طرح سؤال لكن القنطور ذهب بعيدًا، واختفى في المدى البعيد. حاول هاينز اللَّحاق بالرَّكبِ لكنَّ ساقيه لم تحملاه؛ كانتا ثقيلتينِ مثل الخشب، ففهم الصَّبي أنَّ جدّه قد تركهُ وحيدًا، لقد تركهُ وحيدًا في فراغٍ لا لون له.

في الصَّباح استيقظ باكرًا وفتح عينيه ورأى المرأة تشعل النار. كان يراقب النيران تطفو على السطح وتضيء المطبخ المظلم، وشاهد ظلال ألسنة اللّهب تبدأ بالرقص على الجدران الباهتة. حاول هاينز النُّهوض، لكنَّ المرأة ابتسمت وقالت شيئًا بكلّ لطفٍ، ممَّا جعله يفهم أنَّ بإمكانهِ العودة إلى النوم. حاول الصَّبي عدم السّقوط من فوق المقعد الضّيِّق، ولفَّ جلد الغنم حوله بعناية حتّى أصبح مثل فراشةٍ في شرنقتها، وراقب أنشطة المرأة اليوميّة الهادئة. كانت ممتعة ومضيافة. بدأت عيناه تنغلقان ببطء، وبينما كان الخشب يطقطق

بهدوء في الموقد، نام هاينز مرَّة أخرى.

كان الأولاد يسيرون بمرح، وتتحوّل أنفاسهم إلى سحب بيضاء في الهواء البارد. كان خشبُ التّنوب مغطّى بالثّلج كأنّه يغطُّ في نومٍ عميق، كما لو أنّه لم يكن هناك موت ولا حرب. كانت الطريق تسير بشكل جيّد ولم تكن زلقة جدًّا، ولم يكن الذهاب صعبًا جدًّا، فقد ساعدهم النّومُ وتناول وجبة دسمة في تحمّل المسافة. لقد أطعمتهم المرأة جيِّدًا. عندما استيقظ هاينز ثانيةً، كان الجوُّ خفيفًا تقريبًا ورأى أنّه كان الوحيد الذي لا يزال نائمًا. قام مرتبكًا. ضحك عبر الباب الموارِبِ. كان ألبرت يستخدم الإيماءات ليُظهر لأطفال المزارعين شيئًا مَّا وكانوا يسقطون وهم يضحكون. لم يكن المنزل كبيرًا حقًّا، وكان عدد السُّكَّان أكثر من كافٍ: إلى جانب سيِّد المنزل، كانت هناك زوجته وثمانية أطفال. ربّما كان هناك المزيد، لكنّ هاينز تمكَّن فقط من إحصاء خمس فتيات وثلاثة أولاد. يبدو أنّهم كانوا جميعًا لُقطاء. كانت الفتيات يضحكن ويسردنَ قصّة على ألبرت؛ كانت إحداهنّ تلوّح بذراعيها إلى أعلى وإلى أسفل كما لو كانت أجنحة، ولا شكّ أنّها أرادت أن تقول شيئًا عن الدَّجاج أو الإوزّ. لم يكن واضحًا ما إذا كان ألبرت يفهم ما تقوله أم لا، لكنَّهُ كان يضحك أيضًا.

رأى هاينز أنَّه لن يكون قادرًا على الاغتسال داخل المنزل، فخرج وغسل وجهه بالثلج. الكلب، الذي استقبل الأولاد بغضب شديد، كان ينظر الآن إلى هاينز ويحرِّكُ رأسه من جانب إلى آخر،

مندهشًا على ما يبدو. ظهر سيّد المنزل، لا يبدو صارمًا كما كان في اللّيلة السابقة.ابتسم، وأشار بإيماءات وعبارات من لغة الأجنبيّة إلى أنَّ هاينز كان شجاعًا لاغتسالهِ بالثلج. تظاهر الرجل بأنّه يشعرُ بالبرد، وهزَّ رأسه ولوّح بإصبعه وكأنَّهُ يقول إنّ الأمر لا يستحقّ ذلك. أو ربّما أسيء فهم هاينز. ربّما كان الشيء الوحيد الذي أراد الرّجل قولَهُ هو «لا تعرِّض نفسك لنزلة برد».

عندما عاد هاينز إلى الدّاخل، دعته المرأة للجلوس على الطاولة. لقد سلقت كومة كاملة من البطاطس وكان الجميع ينتظرون بفارغ الصبر وجبة الإفطار. وضعت سلطانيات البطاطس بالبخار والصلصة على موائد المطبخ في الغرفة الرئيسيّة. أكل هاينز، مقلّدًا الرّجل ذا الشعر الداكن الذي فتح لهم الباب بالأمس - كانت المرأة قد قَلَت بعضًا من الدهون فغمسوا البطاطس فيها. لقد كانت لذيذة. كان مصدر الانزعاج الوحيد هو الفتيات اللّاتي كنَّ يضحكن من فرط جوع الأولاد الألمان الذين هجموا على الطعام. كان هناك الكثير من البطاطس، لكنّ الأولاد كانوا مفترسين. أكل ألبرت ورأسه إلى أسفل، كما لو كان خجولًا، وكانت أذناه حمراوين زاهيتين تتحرّكان بطريقة غريبة. ضحكت الفتيات، وغطّين أفواههنّ بأيديهنّ، وتهامسن بشيءٍ، لم تردعهنّ تعليقات والدتهنّ ونظرات والدهنّ المؤلمة.

نعم، لقد كان يومًا ممتعًا للخروج إلى الغابة. ولاسيّما بعد تناول وجبة دسمة ونوم جيّد ليلًا.

لسوء الحظّ، لم يتمكّن المزارعون من تقديم أيّ عمل لهم وكان من الواضح أنَّهم لن يتمكَّنوا من البقاء فترةً أطول. ففي النِّهاية، ربّما كانت البطاطس هي كلُّ ما تأكله الأسرة الكبيرة. كانت المرأة قد أعطت الأولاد القليل من البطاطس في رحلتهم، وهوَ أوّلُ طعام حصلوا عليه في ليتوانيا. ولم تكن تلك بداية سيّئة على الإطلاق.

انحنت الطّريقُ في النّهاية فنزلوا إلى وادٍ. توقَّف الأطفال بعض الوقت، وضبطوا حقائبهم وأخذوا طريقهم. عندما سألوا صاحب المنزل عن قرية أو بلدة صغيرة قريبة، أشار إلى الطريق وهمسَ بشيءٍ مّا، وهو يلوِّحُ بيده مرّات عديدة. كان ما يقوله واضحًا: «امضوا مباشرة واستمرّوا في السَّير». فعل الأولاد ذلك بالضبط، لكنّ الغابة كانت تزداد كثافة فبدت ممتدّةً بلا نهاية. بدأ القلقُ يتملّكُ هاينز. إلى أيّ مدى سيكون عليهم أن يذهبوا؟ من المؤكّد أن تنتهي الغابة عندَ نقطة معيّنةٍ. لكن من يعلمُ نهايتها؟ ففي النّهاية، لم تكن هذه ألمانيا، لقد كانت ليتوانيا وهيَ دولة مختلفة. ربّما كانت الغابات هنا في الواقع ممتدّةً وبلا نهاية.

ارتفعَ صوتُ محرّكٍ آتٍ من بعيدٍ في مكان مّا. ازدادَ الضجيج، كان أحدهم قادمًا، ربّما كانت شاحنة تحمل جذوع الأشجار، أو ربّما كانت تحملُ جنودًا.

اختبئوا! صرخ هاينز، وغطس في الغابة، وكان ألبرت يتبعه من الخلف. لقد سقطوا في الثلج وشاهدوا الطريق عبر خشبِ التنوب.

ظهرت شاحنة، ثمّ ثانية ثمّ ثالثة. كان من الصعب الجزم بذلك، لكن يبدو أنّها مركبات عسكريّة.

قال ألبرت: «ربّما كان بإمكانهم اصطحابنا معهم».

- الجنود؟ لا، لا أعتقد ذلك. ربّما يكون من الأفضل عدم الوقوف في طريقهم. سيسألوننا إلى أين نحن ذاهبون ولماذا نحن وسط الغابة، ولن نكون قادرين على إخبارهم بالحقيقة. علاوة على ذلك، نحن نتحدّث الألمانيّة، لذلك من الأفضل ألّا يرونا.

تلاشى ضجيجُ المحرّكات واستأنف الأولاد رحلتهم.

لقد ساروا في الغابة بعضَ الوقت. كان ألبرت متعبًا بالفعل، لكنَّهُ يدير الأمور كما ينبغي ولم يشتك.

سأل هاينز فجأةً: «هل تشعر بشيء؟».

توقّفوا. لم يقل ألبرت شيئًا واكتفى بالنّظر إلى هاينز، الذي بدا وكأنّه يستمع باهتمام.

- يبدو الأمر وكأنَّ شخصًا مّا يراقبنا من الغابة.

قال ألبرت: «قد يكون ذئبًا».

كان ثمّة شيء يتحرّك بين الأشجار، يلوح في الأفق مثل ظلّ كلب كبير؛ الآن يمكن أن يراه هاينز أيضًا، لا، لا يمكن أن يكون كلبًا. كان من المهمّ ألّا يخافوا. أسرعوا خطواتهم. كان لا بدّ من وجود طريقة للخروج من هذه الغابة.

سأل هاينز: «كيف يمكن أن توجَد ذئاب هنا؟ لا تخافوا من الأشياء التي لا يجب أن تخافوا منها».

أخيرًا، فُتحت مساحة واسعة من الأرض أمامهم، ووصلوا إلى مفترق طرق حيث ظهر منزل يقعُ على يسارهم بجانبِ أشجار الجار.

قال هاينز: «انظروا، دعنا نذهب إلى هناك. لن يكون هناك أيّ ذئاب،سيكونُ ثمّة بشرٌ فقط».

لكنَّهم سرعان ما أصيبوا بخيبة أمل. مع اقترابهم، كُشِفت المزرعة، التي بدت مريحة جدًّا من مسافة بعيدة،إنّها قاتمة ومهجورة.

سقط أحد الجدران، وكانت السَّماء مرئيّة من خلال السقف، ونمت شجيرات التوت في مساحة كانت في يومٍ مّا غرفة.

نظر الأولاد حولهم، خائفين قليلًا من هذا المشهد الذي كان غريبًا.

وسط الحجرة القديمة، حيثُ تشتعلُ النّارُ وحيثُ عُلِّق القدر فوقها كان الثلج قد ذابَ. كانت ساق عجل أو غزال تغلي في القدر، وما زال حافرها ملتصقًا بقاعها.

قال ألبرت مشيرًا إلى القدر والحافر المغلّى: «انظر إلى هذا». كان صوت ألبرت يرتجفُ، فأصاب خوفه هاينز أيضًا. كانوا يقفون بجانب النَّار وينظرون حولهم، لكنَّهم لم يروا أحدًا.

استجمع هاينز قواهُ وسأله: «مرحبًا، هل يوجد أحدٌ هنا؟»، لكن ليس بصوتٍ عالٍ جدًّا، إذ لم يكن على درجة من الثّقةِ التّامّة بنفسه.

- لا تصرخ! لماذا تصرخ؟ وبَّخ ألبرت صديقه.

- حسنًا، النار لم تشعل نفسها بنفسها.

- وماذا لو كان ثمّة مخلوق في الغابة، نوع من شيطانين الغابة...؟

فجأة صرخ شخص من خلفهم، فشُدَّت بطونهم. قفزوا إلى الخلف واستداروا. لم يكن الصّراخُ بشريًّا، ولم يكن في استطاعتهم فهم الكلمات. كانت النبرة شديدة وصاخبة إلى درجة أنّ الثلج يتساقط من أغصان أشجار التِّنُّوب. يومض نصل السكّين أمام وجه ألبرت مباشرة. تمكَّن من تجنُّب الضربة، وأمسك الطفل من ذراعه بشكل غريزيّ، فكانت ذراع صبيّ. كان ألبرت يتصارع مع كائن صغير خشن يحاول الدِّفاع عن نفسه من النصل الحادّ. أمسك بيده السكين. ركله المهاجم وهو يصرخ، لكنّ هاينز اندفع وأمسك بالصبيّ من قفاه وألقاه على الأرض. تمكَّن الصبيّ من عضّ معصم ألبرت فضربه هذا على وجهه بيده الأخرى، وفتح أصابعه وأخذ السِّلاح.

ثبَّت هاينز الصبيّ على الأرض. لم يتعرّف عليه، لكنَّنا نعلم أنّ هذا هو هانسيل الصغير، الذي كان الجنود الرُّوس قد أطلقوا عليهِ النّار وهو يعبر الجليد على نهر نيمان.

كانت عينا هانسيل مثل عينَي المجنون. كان يجد صعوبة في التنفّس، ولا يزال يكافح بشدّة من أجل التحرّر.

قال ألبرت: «يبدو مثل كلبٍ مسعورٍ».

ترك هاينز هانسيل يذهب، قفز وركض في بعض الشجيرات، واختفى فيها.

- لقد عضّ يدي!

- إنّه مثل الوحش البرّيّ.

قال هاينز: ضاحكًا إذا كان مصابًا بداء الكلب، فسوف تصاب بداء الكلب أيضًا. كنت خائفًا من ذئب - ربّما كان جَرو ذئب. ربّما أكل العجل كلّه، ولم تتبقّ سوى الحوافر.

- إنّه سكّين جيّد، رغم ذلك.

- أودّ أن أعرف من أين حصل عليه. بسكّين مثل هذا لن نخاف.

عاد الأولاد إلى الطريق وواصلوا رحلتهم. استمرّوا في الالتفات من حولهم بحثًا عن الصّبيّ المتوحّشِ الذي هاجمهم.

كان جرحُ ألبرت مؤلمًا جدًّا.

كانَ الوقتُ صباحًا، والثلج يتساقط بشكل خفيف، وكان العالم كلُّهُ صامتًا بشكل غريب. كانت رينات واقفة وهي تنظر إلى السماء، حيث لا يكاد المرء يتمكّن من رؤية السُّحب المنجرفة. لم تكن ملامحها جليّة، كما لو أنّ الرّسّام غطّى كلّ شيء بظلال الباستيل، باللّون الرماديّ المفضّل. بالوقوف على هذا النحو، كان من السهل أن تفقد توازنك، وتفقد المسار من حيث انتهت الأرض وبدأت السّماء، ولاسيّما الطِّفل الجائع الذي يصاب دائمًا بالدوار. تمايلت رينات لحظةً، واتّكأت على جدار الحظيرة لتحافظ على توازنها؛ كانت النِّقاطُ الصغيرة والمشرقة مثل الحشرات الذهبيّة تسبح أمام عينيها. ظلّت تتذكّر بوريس، وتَجنِّبِ نهاية المدينة التي تعيش فيها والدته. كان الأمر غريبًا، لكنّ ضمير الفتاة ظلّ يضايقها، وكأنّها هي من فعلت شيئًا خاطئًا، وكأنّ كلَّ اللّوم ينصبُّ عليها، وكما لو أنَّ قوّةً رهيبةً قد فجَّرت ذلك الفتى الروسيّ ورمت يدهُ بعيدًا وأبعدتهُ عنها. لم يترك شيئًا سوى كائن بشع، دمويّ، حيوان صغير لا يمكن التعرّف عليه. يمكن أن تتخيّل رينات والدة بوريس وهي تبحث عن ابنها، وهي تبكي، وهي تمشي في المدينة، واليأس يبتلعها مثل المياه السّوداء. لكنَّها ربَّما لم تكن تبحث عنه على الإطلاق. لم

تأت إليهم لتسأل أين ذهب بوريس، أين اختفى ابنها الوحيد، رغم أنّ الأمّ البائسة لم تكن تعرف أين يعيش الأطفال. أمّا اليد، فلم تكن رينات متأكّدة من أنّها يد بوريس حقًّا، لكنَّها تعلم أنّ حلمها لم يكن كذبة: فقد أخذها الكلبُ فشعرت بالدُّوار وأضحت حياتها اليوميّة شبيهةً بالحلم. كان من الصعب تمييز ما هو حلم ممّا هو واقعٌ. عندما استيقظت، كانت تتوق إلى الاستيقاظ مرَّة أخرى،كي تعزف لشخصٍ مّا مقطوعة موسيقيّة على البيانو، بينما يدخّنُ الجدّ من غليونهُ المنحني، حتّى لو فاحت منه رائحة التبغ، وهي رائحة كانت تكرهها في ذلك الوقت. دعه يعود ويجلس أمامَ أشعّة الشمس. دعهُ يبتسم.

كان الوقت يتقدّمُ ببطء، كما لو كان محمولًا على إيقاعاتِ الرّياح وعلى النسيم الذي يندفعُ ببطء على طول السحب الشتويّة الرَّمادية. فكّرت رينات في هاينز. أوه، فقط لو كان يمكن أن يكون في المنزل! كان سيأتي ببعض البطاطا والدَّقيق. كانت تحبُّ الدقيق بشكل خاصّ، لأنَّ العمَّة لوت يمكنها صنع الفطائر منه، فطائرُ صفراء مثل شمس صغيرة. لكنَّها كانت تعلم أنّه لا جدوى من الأمل، أو التفكير في أنّه سيعود لمجرّد أنّها أرادت أن يكون الأمر كذلك. لا، هذا لن يحدث حقًّا؛ لن يعود اليوم أو غدًا. كانوا سيصابون بالجوع والبرد لفترة طويلة؛ لا فائدة من خداع نفسها، في إطعام نفسها بالأحلام، لأنّ ذلك سيجعل خيبة الأمل أكبر. أوه، لو ينجح شقيقها فقط، إذا استطاع ذلك، إذا لم يضع في عاصفة

ثلجيّة، ماذا لو وجد مكانًا دافئًا وصالحًا للإقامة، مكانًا مريحًا حيث يمكنه أن ينسى كلّ شيء، والدته، رينات والجميع، الجميع! ولكن قد يكون هذا المكان مرقد ساحرة، حيث سيتمّ قتلكَ مثلما فعل هانسيل في تلكَ الحكاية الخياليّة، ولن يكون هناك من يدافع عنك يا أخي العزيز هاينز. كانت رينات تودّ أن تكون هناك الآن، حيثُ شقيقها. ستكون قادرة على رؤية خطط الساحرة الشرّيرة، لتحذيره وحمايته.

كانت رينات تمشي ببطء، عبر الانجرافات الثلجيّة المنعشة من اللّيلةِ الماضية. لمست جذع شجرة الزيزفون بيدها ونظرت إلى أعلى مرّة أخرى. أوه، يا لتلك البراعم، لقد تمَّ انتقاؤها جميعًا من الأغصان السفليّة. لقد كانت لذيذة جدًّا، ومثل الأرانب، أكلها الأطفال منذ فترة طويلة، وسحبوا جميع الأغصان التي يمكنهم الوصول إليها. تجوَّلت رينات حول جذع الشجرة، وقفزت وحاولت الوصول إلى أحد فروعها، لتمسك به وتتسلّق الشجرة. حاولت مرارًا حتّى تملّكها التّعبُ. كان الفرع مرتفعًا جدًّا، فألقت قفّازَيها وحاولت مرَّةً أخرى، لكنَّها لم تكن مجدية. التقطت عصا طويلة وضربت بها أغصان شجرة الزيزفون فوق رأسها. ضربتها مرّة أخرى، وتمكّنت في النهاية من كسرِ فرع كبير.

كانت البراعم لذيذة، إلى درجة أنّها ذابت في فمها. لكنَّها كانت صغيرة جدًّا. أنهت رينات كلَّ البراعم ثمّ بدأت في قضم اللّحاء.

على الأقلّ كان شيئًا يمكنُ قضمهُ.

لكنَّها شعرت فجأة بألم طعن في فمها، وكان هناك طعم مالح أحمر. حرَّكت لسانها حول لثتِها، فتحّركت أحد أسنانها وكادت تسقطُ. دفعته إلى الخلف والأمام ثّمَّ دفعتهُ فسقطَ. ما مدى سهولة سقوطه، هذا السنّ اللّبنيّ؟ فكّرت رينات، ماذا لو لم يورق هذا السّنُّ مرَّة أخرى، سأكونُ حتمًا مثل امرأة عجوز، مثل صديقة والدتي: مارثا. لكن لا، لم تكن مارثا عجوزًا على الإطلاق، ولم تسقط أسنانها من تلقاء نفسها. ابتسمت رينات، متذكِّرةً كيف بكى هيلموت عندما نزعوا أسنانه اللّبنيّة. رينات لن تبكي. وجدت أنّ من المضحك أن تقف هناك والسنُّ في يدها، وتنظر إليه كما لو كان حجرًا ثمينًا. لا، لم يكن حجرًا ثمينًا، لكن يمكنها وضعه تحت وسادتها قبل النوم، وفي الصَّباح سيتركُ لها الفأر عملة معدنيّة. لكنّ الفتاة اشتبهت، رغم أنّها لم تكن تعرف السبب، أنّ ذلك لن يحدث هذه المرّة.

كانت في الحظيرة بقرةٌ تخورُ بحزنٍ. بدا الصّوتُ غريبًا بالنسبة إلى رينات وهي تفكّر هي في أسنانها اللبنيّة. لا، لم تكن ملكهم. كانت أبقارهم قد صودرت منذ وقت طويل. هذه البقرة على ملك الرّوس الذين كانوا يعيشون الآن في منزلهم القديم. لقد أُحضِرت إلى هنا من مكان آخر، وربَّما هي مأخوذة أيضًا من بعض العائلات. لقد كانت هادئة لفترة طويلة اليوم، وهو أمر غريب، لأنَّها غالبًا ما كانت تصيح وتصيح. لم يكن لديها تبنٌ، فقد صُودر التِّبن أيضًا، وكلُّ ما تبقّى مجرّد قشٍّ. كانت البقرة تخورُ من الجوع. يمكن للناس

أيضًا أن يخافوا، لكنَّهم كانوا يعلمون أنّه لا يوجد سيّد يمكنهم الاتّصال به ليحضرَ لهم شيئًا يأكلوه.

أدنت رينات رأسها حول زاوية الحظيرة ورأت المرأة الروسيّة التي تعيش في منزلهم تغلق باب الحظيرة. كان القفل ضخمًا، وكان المفتاح ضخمًا بالقدر نفسه. علَّقت المفتاح حول رقبتها، ثمّ رفعت إناءً عن الأرض وسارت عبر الفناء، على طول الطريق الذي جُرّد من الثلج قليلًا. كانت رينات تتساءل عمّا إذا كان يمكن أن يكون هناك حليب بالفعل في الإناء. أوه، متى كانت آخر مرّة تناولت فيها بعض الحليب الدافئ والحلو والطازج لأشربه؟ ربّما لم أكن أنا كذلك؟

«هنا، كيتي كيتي» رنّ صوت المرأة، «كيتي كيتي». كانت تنادي قطّتها، التي لم تسمح لها بالذهاب بعيدًا، لأنّ القطط حينها، أصبحت غذاءً أيضًا.

تبعتها رينات عبر الفناء. لقد كانت القططُ جزءًا منها لفترة طويلة وكانت مألوفةً جدًّا.

«كيتي كيتي»، نادت المرأة حيوانَها الأليف بمحبّةٍ.

اقتربت رينات أكثر ثمّ وقفت. وقفت هناك وتأمّلت كما لو كانت تنتظر شيئًا مّا. أرادت أن تطلب من تلك المرأة صبَّ كوبٍ من الحليب لها، لكن كيف؟ ربَّما يجب عليها أن تموء؟

تثاءبت بتكاسلٍ ومشت نحو المرأة التي كانت تصبُّ بعض

الحليب في وعاءٍ صغيرٍ. وضعته تحت أنف حيوانها الأليف.

استدارت المرأة كي تغادرَ فانتبهت إلى وجودِ رينات، التي كانت تحدّق بعينينِ جائعتينِ في القطّة وهي تلعق الحليب.

قالت المرأة بعد توقّف طويل: «لا تحدِّقي. هيّا، اذهبي إلى المنزل».

لكنّ رينات كانت لا تزال تنظر إليها، إلى هذه المرأة الأجنبيّة، التي ترتدي فرو الثعلب فوق كتفيها، والتي ربّما كانت ترتدي كلّ شيء وجدته هنا، ولكنّها عارية الرأس، مع شعرٍ مجعّدٍ. كانت عينا رينات زرقاوَين وصافيتين.

قالت رينات بهدوء: «هذا منزلنا».

نظرت إليها المرأة ولم تقل شيئًا.

«هذا منزلنا، لقد عشنا هنا».

حملت المرأة القطّة ووعاءها، وأخذت القدر ودخلت.

وقفت رينات هناك دون أن تتحرّك البتّة، فبدت تلكَ اللّحظةُ شبيهةً بالأبديّة. مثل تمثال، وقفت متجمّدةً في هذا الفناء، حيث سار أشقّاؤها وأخواتها ووالداها وأجدادها وأصدقاؤها. ربَّما لم تكن تنتظر أيّ شيءٍ وهي تقف هناك، لكنّها لم تكن تعرف إلى أين تذهب، كان قلبها مليئًا بالألم. شعرت أنّها فقدت شخصًا قريبًا منها إلى الأبد. شعرت بالبرودةِ التي تحوّمُ في الفراغ. نعم، لقد غمرها

الفراغ، مثل بئر عميقة. كانت روحها فارغة ويتردّد صداها كما لو أنّه ينبعثُ من بئرٍ عميقةٍ.

ثمَّ فُتِح الباب مرّة أخرى. وقفت المرأة الرُّوسيَّةُ على عتبة الباب وقالت باللغة الألمانيّة: «لسنا مُلامينَ». لقد حملت قطعة خبز ملفوفة في صحيفة وزجاجة - ربّما كانت هناك فودكا ذات مرّة، أمّا الآن فقد مُلئت لا بالفودكا بل بالحليب.

كوووكووو. أزاح طائر كبير ذو ريش أسود بعض الثلج من أعلى شجرة تنّوب طويلة.

قال ألبرت: «انظروا إلى حجمه، إنه بحجم الدَّجاجة تقريبًا».

كووو،كووو. كان الصوت ينتقل عبر الغابة الصامتة وما وراءها، حتّى حافّة الأشجار،إلى أن يبلغَ المزارع التي كان الأولاد يسيرون نحوها بسعادة.

- أتساءل عمّا إذا كان صالحًا للأكل؟

- كلّ الطيور صالحة للأكل، فلماذا لا تكون صالحة للأكل إذا كان بها ريش؟

أشعل الأطفال النار، وألقوا فيها أربع حبّات من البطاطس، ولم ينتظروا حتّى تنضج جيّدًا قبل إخراجها، ثمّ ألقوا بها مثل المشعوذينَ بين أكفّهم لتبريدها، ثمّ غابت في أفواههم دون أن يتركوا لقمةً واحدة. في النّهاية، غطُّوا النار بالثلج، وأخفوا كلّ أثر لوجودهم هناك. لماذا؟ ربَّما لأنَّ هذا ما فعله الرُّوّادُ في أمريكا في الكتب التي قرؤوها؟

نظر الغراب إلى الجسدينِ البشريّين الصغيرين، وهزَّ رأسه، ثمّ نعق مرَّةً أخرى. طائر يتغذّى جيِّدًا في عالم مّا بعد الحرب، لكنّهُ يبدو في أعماقهِ كائنًا بشريًّا، مليئًا باللَّحم البشريّ.

هل كان الأولاد يسافرون لفترة طويلة أم لفترة قصيرة؟ كان من الصعب القول. بدا كلّ شبر من الغابة متشابهًا. كان الجوع يقضمهم. ماذا فعلت حبَّتانِ من البطاطس نصف المجمّدة لمسافرين مثلهم؟ لكن كلّ شيء يجب أن ينتهي عاجلًا أم آجلًا. بدأت الغابة تتضاءل بشكل غير متوقّع؛ يمكن رؤية الضوء من خلال الأشجار. أمامهم حقل كبير وسهل أبيض.

تسابق الأولاد إلى حافّة الغابة ثمّ توقّفوا، كما لو أنَّ الشّتاء فصلٌ بلا نهاية. لكن هناك، من بعيد، استطاعوا أن يروا مزرعة محاطةً بأشجار كبيرة قديمة، حيثُ يتصاعد الدُّخانُ من مدخنة.

كانت قلوب الأولاد ترفرف بفرح، فانطلقوا في اتّجاه المنزل والناس الذين يعيشون فيه.

حلَّق الغراب فوق رؤوسهم وأصدر صوتًا عظيمًا، كما لو كان يودّعهم، ثمّ اختفى خلف أشجار التّنّوب.

كانت المزرعة كبيرة جدًّا، وبها ساحة واسعة وحظيرة وبستان.

تحوَّل الأولاد إلى الفناء. كان ثمّة كلب ضخم ينبح بجوار حظيرة الحيوانات. على مقربة من الكلب، كانت توجد كومة كبيرة من نباتات الآلبار التي بدأ شخص مّا في قطعها.

مشت امرأة عبر الفناء. كانت تبدو عجوزًا، لكنّ قامتها طويلة وظهرها مستقيمٌ، تضعُ وشاحًا حول رأسها، وتنتعلُ زوج حذاءٍ طويل في قدميها. لم تبتسم. بدت قويّة وصارمة. كانت تحمل دلوًا، ربّما لإطعام الحيوانات، ربّما الخنازير.

قال الصبيّان «مرحبًا»، فتوقّفت المرأة. نظرت إليهم بارتياب.

«العمل، الخبز». نطق هاينز الكلمات التي تعلَّمها باللغة الليتوانيّة.

- يمكننا القيام ببعض الأعمال من أجلك، من أجل رغيفٍ من الخبز.

قالت المرأة: «ليس لديّ أيّ عمل من أجلك».

- الخشب، يمكننا قطع الخشب.

لم تقل المرأة شيئًا منذُ لحظاتٍ، وكأنّها تختبرُ العاملين المحتملين. أطلقت ابتسامة ثقيلة. لم يكن واضحًا ما إذا كانت تلك ابتسامة، ربّما كانت مجرّد ضوء يعبر وجهها الصّارم. لكنَّها بعد ذلك، أطلقت إيماءةً كما لو أنَّها تقول، اتبعوني. نظر الأولاد بعضهم إلى بعض ثمّ تبعوا المرأة.

كانت بريجيت وجريت والعمّة لوت يبحثن عن الفئران بين الأنقاض. كانت الفتيات يفحصن الثقوب بعناية وينظرن تحت ألواح الأرضيّة. في البداية لم يكن واضحًا ما كانوا يبحثون عنه بمثل هذا التركيز، وما الذي يبحثون عنه، ولماذا يتحرّكون بحذرٍ شديدٍ، خائفين من إحداث ضوضاء.

وجدت العمّة لوت شيئًا مّا وأشارت إلى جريت وبريجيت، اللتين حضرتا وتحلّقَتا حولَ الشّيء الذي عثرت عليه.

نفذ جرذ من كومة قمامة.

ألقت بريجيت قطعة قماش عليه.

اندفعت لوت، وضربت الحيوان الصغير الذي يتحرّك تحت قطعة القماش ثمّ قتلته.

مات معظم الجرذان أيضًا، ولم يتبقّ سوى عدد قليل منها نصف ميّت. أخذت بريجيت الجرذ الميت ووضعته بجانب القوارض الميّتة الأخرى.

كان الماء يغلي على الموقد.

كانت العمّة لوت تسلخُ الجرذ.

كان هيلموت ومونيكا يقفان بجانب الوعاء.

- أيّ نوع من الحيوانات هذه يا عمّتي لوت؟

- أرانب صغيرة.

- هل طعمها لذيذ؟

- جدًّا!

- ولماذا طعمها جيّدٌ يا عمّتي لوت.

- لأنّ الطعام الوحيد الذي تأكله خلال الصيف هو تفاح الجنّة.

- ولكن أين آذانها الكبيرة؟ رأيت بعض الصور لها في كتاب، وكانت لديها آذان.

- الأرانب الكبيرة الشرسة لها آذان كبيرة، والأرانب الصغيرة لها آذان صغيرة.

- لماذا؟

- حتّى لا يراها الثعلب مختبئةً في العشب.

ضحك هيلموت ومونيكا.

قالت إيفا لأطفالها الصغار أن ينتبهوا ويتذكّروا ويعرفوا من أين أتوا ومَن هم.

قالت: «مهما انتهى بكم الأمر، وحتّى لو لم أعد معكم– تذكّر ذلك جيّدًا»، وأدرك الأطفال أنّ من المهم جدًّا تذكُّر من أنت ومن أين أتيت.

- كرّريها يا طفلتي العزيزة، كرّريها وتذكّريها.

- أنا مونيكا شوكات، ولدت في جومبينين في 9 مارس 1936، ابنة إيفا ورودولف.

- لا تنسي أسماء إخوتك وأخواتك.

أنا ابنة إيفا ورودولف، ولديّ شقيقان: هيلموت، أخي الأصغر، وهاينز، أخي الأكبر. لديّ أيضًا شقيقتان، بريجيت ورينات.

- وما هي جنسيّتك؟

- أنا ألمانيّة.

- الآن البقيّة، قولوا من أنتم وتذكّروا ذلكَ جيّدًا مهما حدث. هيّا، رينات، يا فتاتي العزيزة.

- أنا رينات شوكات، ولدت في جومبينين في 1 أبريل 1939، ابنة إيفا ورودولف ...

- هيلموت شوكات، ولد ... ولد ...

لم يعد يتذكّر أكثر من ذلك وأحنى رأسه خجلًا.

تابعت إيفا بصبر: «... ولد في جومبينين في 13 أبريل 1940، ابن إيفا ورودولف. لديّ أخ اسمه هاينز وثلاث أخوات، بريجيت ورينات ومونيكا.

قال هيلموت بفخرٍ: «وأنا ألمانيّ».

ظهرت الدموع في عينَي والدته.

- لماذا تبكين يا ماما؟

- حاول ألّا تفتخر بكونك ألمانيًّا. فقط تذكّر أنّ هذا ما أنت عليه.

كانت كومةالحطب التي يكوّمها ألبرت بجوار حظيرة الحيوانات تنمو بشكل أكبر.

كان هاينز يقطع الخشب. بدا متعبًا، لكنّه يقوم بعمل جيّدٍ في قطع الخشب.

- كيف يكون التقطيع أمرًا سهلًا بالنسبة إليك، لكنّني أجده صعبًا جدًّا؟

- لأنّك تحتاج إلى أن تبدأ من بقطعة الخشب الرقيقة وتهوي عليهامن المركز تمامًا. جرّب الآن، وسأجمع الخشب.

أخذ ألبرت الفأس الضخم من هاينز، ووضع قطعة من الخشب على كتلة التقطيع وحاول قطعها، لكنّه فشل مرّة أخرى.

بدأ الكلب ينبح بسعادة. أحضرت له مالكتهُ نوعًا من عصيدة البطاطس.

- إنّها تطعم الكلب، لكنّها لا تريد أن تطعمنا أيّ شيء.

- صه! اهدؤوا، سوف تسمعنا.

خرجت زوجة المزارع مرّة أخرى، وهذه المرّة تحمل شرائح كبيرة من الخبز الأسود ووعاءً كبيرًا من الحساء السميك.

كانت المرأة تمشي على طول الطريق نحو كومة الحطب.

كان ألبرت يكافح. رفع الفأس فوق كتفه مع قطعة الخشب التي دفنت فيها. لقد تمكّن فقط من التمسّك بالشيء برمّته إذ أنزله بقوّة على كتلة التقطيع المجمّدة. انقسمت قطعة الخشب إلى نصفين، ثمَّ مسح ألبرت العرق عن جبينه.

قالت المرأة، باللغة الليتوانيّة: «أنت تعمل بشكل جيّد، وتحتاج إلى بعض القوت».

استدار الأولاد، ربّما لا يزالون غير مقتنعين بأنّهم سيحصلون على شيء يأكلونه. وضعت المرأة وعاء وملعقتين وبعض الخبز على الكتلة.

شكروها - ألبرت بالألمانيّة، وهاينز باللغة الليتوانيّة - وبدؤوا في تناول الطعام.

أضاءت ابتسامة ناعمة وجه المرأة. شاهدت الأولاد يأكلون لبعض الوقت ثمّ عادت نحو المنزل.

فتح باب الحظيرة ودخل هاينز وألبرت والمرأة إلى الداخل.

كان الأولاد يحملون كمّيّات هائلة من الشّراشف القديمة. صعدت المرأة بالأولاد إلى كومة كبيرة من التّبنِ، حيث يمكنهم النَّوم. صعد الأولاد السلَّمَ. تحدّثت إليهم باللغة الليتوانيّة، مضيفة الكلمة الغريبة بالألمانيّة.

- آمل ألّا يكون الجوّ باردًا، ولكن إذا كنتم متقاربين جدًّا، فيمكنكم الحصول على ما يكفي من دفء. فقط لا تدخّنوا ولا تشعلوا أيّ أعواد ثقاب. يجب ألّا تشعلوا النار ولا تدخّنوا، هل فهمتم ذلك؟

أدرك الأولاد أنّهم لا يستطيعون إشعال النار، لكن كان عليهم أن يظلّوا دافئين بطريقة مّا.

قالت المرأة: «إذا سمعتم أيّ شيء، فلا تصدروا أيّ ضوضاء ولا تنظروا إلى شيء، هل فهمتم ما أقول؟».

خرجت وأغلقت الباب الثقيل وأغلقته من الخارج.

ساد الصمت المزرعة حيث كان الأولاد يقضون الليل. أضاءت النجوم والقمر فوق الحقول المغطّاة بالثلوج، وقد بدت كأنّها نائمة. في مكان مّا بعيد، نبح كلب.

سادَ الصَّمتُ.

ثمّة خطى تدوسُ على الثَّلج.

اندفعت ظلال خمسة مسلّحين نحو المزرعة.

كان هاينز وألبرت مستلقيَين على القشّ ملفوفين في بطّانيّات سميكة.

قال هاينز: «طعم هذا الخبز جيّد جدًّا».

- نعم جيّد جدًّا.

- هل لي أن أقضم مرّة أخرى؟

- لننتظر حتّى الغد. قد لا نحصل على أيّ شيء غدًا، لذا يجب أن نحتفظ به. في النّهايةِ، علينا أن نأخذ بعضًا منه إلى المنزل أيضًا.

- سوف نأخذ بعض الخبز إلى المنزل، سنفعل ذلكَ.

سأل ألبرت: «هل تفكّر كثيرًا في والدك؟».

- لا أفكّرُ فيهِ طَوال الوقت، لكنّ ذاكرتي تحملني إليهِ أحيانًا. أتذكّره وهو يعرض لنا الحيل في لعبة الورق، لقد كان جيّدًا جدًّا فيها. قال إنّه سيعلّمني أيضًا، لكنه لم يعلّمني ذلكَ البتّة.

- الأمر ليس في غاية السوء بالنسبة إليك، على الأقلّ والدك لا يزال على قيد الحياة.

- لا أعرف ما إذا كان كذلك. من يستطيع أن يعرف ذلك؟ لم نتلقّ منه رسالة منذ ستّة أشهر تقريبًا.

- كثيرا ما أفكّر في والدي. أتساءل عمّا إذا كنت سأتعرّف عليه عندما أموت؟ سيكون هناك الكثير من الموتى، وستكون السماء مليئة بالآباء، وسيكون هناك الكثير من القتلى. طبعًا، لن تبدو شبيهةً بالجثث المرميّة، لكن عندما يقولون إنّك ستموت وستجد نفسك في الجنّة، حيثُ ستقابل والدك،أخاك، وكلَّ الأشخاص الذين تحبّهم هناك. لن أكون الوحيد الذي سوفَ يمشي بين هؤلاء الملايين من الناس ويصرخ «بابا، بابا!»سيسيرُ معي الكثير من الأطفال والبالغين ويصرخون مثلي.

ظلَّ الأولاد صامتين لبعض الوقت.

- أغلقت تلك المرأة الباب ولم أتمكّن حتّى من الذهاب للتبوّل.

- إذن انزل إلى الأسفل وتبوّل.

- أنا خائف... ساعدني على النزول. لا تضحك. أنا خائف من الظلام.

- سنهبط معًا، أحتاج إلى التّبوّل أيضًا.

نزل الأولاد السلّم دون أن يصدروا أيّ صوت. تسلّلوا إلى الباب، لكنّه كان مقفلًا.

كان ثمّةصوتٌ في مكان مّا في الظلام.

فجأة سمع هاينز صدى لأقدام وهو يدوس على الثلج. همس لألبرت أن يصمت. لم يفهم ألبرت وكان على وشك الردّ، لكنّ هاينز وضع يده على فمه وصرخ في أذنه: «صه! ثمّة شخصٌ قادم».

من خلال فجوة في الباب، رأى الأولاد ظلًّا يركض نحو المنزل ويطرق على النافذة.

فتح الباب واختفى الظلّ في الداخل.

بعد لحظة انفتح الباب مرّة أخرى وسمعوا صوت بومة.

على ضوء القمر، تحرّك المزيد من الرجال المسلّحين ومشوا على طول الطريق في اتّجاه المزرعة. دخلوا إلى المنزل وبقي أحدهم في الخارج.

نظر الأولاد بعضهم إلى البعض،خائفين، ثمّ انطلقوا دون ضوضاء صاعدين نحو كومة التّبن.

حدث ذلك قبل الفجر. كان الليل يتلاشى ببطءٍ، لكنّ السماء كانت لا تزال مظلمة والبرودة تقضم خدّ الفتاة وأنفها. استيقظت رينات ومونيكا مبكّرًا وشربتا بعض الشاي الساخن مع قشرة خبز جافّة، وكانتا بالفعل في المكان نفسه من السوق. كانتا تقفان بين صفوف العربات. رينات تحملُ مكنسة وكانت المكنسة مريحة للاستخدام، لها مقبض جيّد الصنع، اقتُنِي، ولم يصنعوه بأنفسهم من أغصان البتولا. وجدت الفتاتان مكانًا مجّانيًا فوقفتا ممسكتينِ بالمكنسة أمام النّاس، لكن لم يقدّم أحد أيَّ عرضٍ حتّى الآن. لا أحد في حاجة إليهما. انتظرتا، وأصبحتا أكثر برودةً، ثمّ بدأتا في الضغط على أقدامهما للتدفئة. كانت رينات تنفخ أنفاسها الدافئة في راحة يديها.

على مقربةٍ منهما، كان مزارعون من ليتوانيا يبيعونَ سلعهم: البطاطس والخبز والبيض والجبن والقشدة الحامضة. كان الناس يقايضونهم، ويعرضون بضاعتهم في المقابل، أكواب الشرب المزيّنة بشكل جميل بالفضة، ومرآة، وطاحونة القهوة، والأواني الفضّيّة، والممتلكات العائليّة الثمينة، والمجوهرات. لقد أرادوا شيئًا واحدًا

فقط: الطعام. فرصة للبقاء على قيد الحياة، لعيش يوم آخر. كان المزارعون يتبادلون البطاطس مقابل هذه البقايا الثمينة التي تمّ استردادها من مخابئهم والتي تعودُ إلى الماضي ولم يبقّ منها أيُّ شيء. أصبحت البطاطا والدهون الآن أكثر قيمة من القطع الفضّيّة، فتلكَ الأشياء البسيطة هي الكفيلة بتحقيق حياة هادئة وسعيدة. كان ثمّة مدرّس سابق يحاول الحصول على طعام مقابل مجموعةٍ من الكتب التي كانت بأحجام ثقيلة ومربوطة بشكل جميل مع خرائط ولوحات منقوشة. لكن لا أحد بحاجة إلى الكتب الآن.

اندلع شجار في مكان قريب. لقد سرقَ طفل صغير قطعة من الخبز وهرب بعيدًا وهوَ يلهث بشدّة، لكنّهم أمسكوا به في النّهاية وانهالوا عليهِ ضربًا، غير أنّه رغمَ ذلكَ حشا الخبز في فمه حتّى لا يتمكّنوا من أخذه منه.

قالت مونيكا: «إذا أردنا بيع المكنسة، فسنضطرّ إلى التجوّل وتقديمها للناس بدلاً من الاكتفاء بالوقوف هنا حتّى نتجمّد».

أخذت المكنسة من رينات وتجوَّلت، وتوقّفت عند كلّ مزارع تقريبًا، قائلة: «اشترِ هذه المكنسة الرائعة، التي حملتها طوال الطريق من برلين».

لكن لم يكن أحد بحاجة إلى تلك المكنسة الرائعة من برلين؛ رفعوا رؤوسهم جميعًا دون أن ينبسوا ببنت شفة.

نفدَ صبرُ مونيكا فسلّمت المكنسة لرينات: «خذيها وبيعيها إذا

أردت. لقد نفدَ صبري، سأغادر إلى ليتوانيا اليوم».

أجابت رينات: «ماما لن تسمح لك بالرحيل».

- لن أطلبَ منها الإذن.

- سوف تبكي ماما إذا رحلتِ.

استدارت مونيكا وغادرت، تاركة أختها الصغرى وسط دوّامة من الناس والثلوج المتساقطةِ. عندما كانت رقاقات الثلج تدور حولها، أدركت رينات أنّها لن تعود، وأنّ مونيكا رحلت. صرخت بعدها: «مونيكا، مونيكا!» لكنّ مونيكا لم تستدر.

كانت رينات باردة ومتعبة. كانت تقف هناك وتفكّر في هاينز وألبرت، اللذين كانا لحظتها في ليتوانيا، وتفكّر في مونيكا. ربّما كانت الأمور جيّدة هناك في ليتوانيا، على الجانب الآخر من النهر، لكنّ رينات لم تستطع ترك والدتها أو هيلموت. كان على شخص مّا أن يعتني بهما.

حثّت الخطى عائدة إلى المنزل ولاحظت وجود رجل مرح غريب المظهر يعزف الموسيقى. لم يسبق لرينات أن رأت رجلًا مجعّدًا وطاعنًا في السنّ من قبل. كان جالسًا في عربة ورجلاه متقاطعتان بشكل غريب، وهو يعزف موسيقاه. كانت زوجته العجوز تبيع سلالًا لا يحتاج إليها أحد، وبعض أرغفة خبز. وكانت تقطع الخبز إلى شرائح وتطلب عشرة روبلات أو عشرة ماركات لكلّ منها، كانت العملة جيّدة، لكنّ المقايضة كانت أفضل. اقتربت فتاة نحيفة

وطويلة جدًّا ترتدي معطف رجل يبدو كبيرًا جدًّا بالقياس إليها، وسحبت ساعة من تحت المعطف. أضاءت عينا الرجل العجوز ـ كانت جميلة، مزيّنة بالفضّة والنحاس، وساعة منبهّة. أرادت الفتاة أكثر ممّا كانا على استعداد لتقديمه، ولم يناقشها الزوجان العجوزان، إذ قدّما لها شريحتين من خبز الجاودار الأسود، الذي لم يكن سميكًا كما ينبغي. رفضت الفتاة وحاولت المغادرة، لكنّ الرجل العجوز كان يلفّ الساعة ويضعها على أذنه ويستمع إلى دقّاتها. كان يرغب في الحصول عليها، لكنّ زوجته لن تسمح له بدفع المزيد مقابل ذلك. أعادت الفتاة عقارب الساعة وذهبت لتعرضها على شخص آخر.

رأى الرجل العجوز رينات تحدّق فيهما بعينيها الكبيرتين اللّامعتين. اعتقدت رينات أنّه يتصرّف بغرابة شديدة، بدا مجنونًا تقريبًا. ولكن بعد ذلك دعاها.

قال الرجل: «مرحبًا، لماذا تحدقينَ بي؟ هل تريدينَ أن تبيعيني تلك المكنسة؟».

- نعم.

- لست بحاجة إلى مكنسة. يمكنني صنع مكانس عديدة بنفسي.

- لكن هذه المكنسة أفضل، إنّها من برلين، قالت رينات، رافضَة الاستسلام دون قتال.

- حتّى لو كانت من برلين، فهل هذا يعني أنّها تكنسُ بشكلٍ أفضل؟

ضحك الرجل العجوز: «إنّها تمسحُ مثل أيّ مكنسة أخرى. لسنا بحاجة إلى مكنسة. تعالي إلى هنا، خذي بعض الخبز، ثمّ ارحلي، لسنا بحاجة إلى مكنستك».

لم تصدّق رينات ذلك، لكنّ الرجل الغريب كان يمسك بقطعة خبز. انتزعت رينات الخبز ثمّ هربت بسرعة خوفًا من أن يغيّر رأيه. في الخلف، كانت تنصتُ إلى الرَّجلِ وهوَ يضحك بمرح.

قرّرت مونيكا عدم العودة إلى المنزل مرّة أخرى، وكانت في السوق بمفردها.

سارت لفترة طويلة تبحث عنها. كانت السوق تقترب من نهايتها. رأت امرأة تبكي وهي تتوسَّلُ إلى مزارع ليتوانيّ أن يشتري طفلها، لأنّ لديها أربعة آخرين ينتظرون في المنزل. «إنّه يعمل بجدّ، إنّه ولد جيّد» كانت تطلب بعض البطاطا مقابله.

«ارحمنا يا سيِّدي! سيساعدك الله. ابني قويّ، يمكنه العمل، ولا يخاف من العمل. من الصعب التخلّي عن طفلي، لكن لديّ أربعة آخرون في انتظاري، وفي النّهاية، إذا لم تعد بحاجة إليه، يمكنه العودة إلى المنزل ...».

عاين المزارع – السمين ذو الشارب – الطفلَ من جميع الجهات، وفحص أسنانه، ورفع ذراعيه. كان يعتقد أنّ الصبي نحيف جدًّا،

ولم يوافق على اصطحابه. كانت زوجة المزارع تحاول عدم الاستماع إليه، ربّما لتجنّب الانزعاج الشديد. بدأت في تكديس كلّ ما تبقّى من السوق في عربة التسوّق الخاصّة بهم، كانوا في طريقهم إلى المنزل.

- تعالي الآن، يا امرأة، كيف سيجد الصَبيّ طريقه إلى المنزل لاحقًا؟

- إنّه ولد جيّد جدًّا، لكنّنا نتضوّر جوعًا، إنّنا نحتضر، ليس لدينا أيّ شيء نعيش عليه. كيف سأطعم صغاري؟ خذه يا سيدي، خذه، كلّ ما أريده هو نصف كيس بطاطس مقابله، فقط نصف كيس بطاطس.

- وما نفعه لي؟ لن يقومَ بأيّ عملٍ من الأعمال، فهو صغير وضعيف، وسأحتاجُ إلى إطعامه. لكن ماذا أفعل؟ أنا لست الله، لا أستطيع مساعدة الجميع، أنا أيضًا يجب أن أعيش. غادري، اذهبي بعيدا يا امرأة. تعالي إلى هنا، خذي حبّة بطاطس وانطلقي.

ذهبت المرأة مع الطفل للتحدّث إلى المزارعين الآخرين.

كانت مونيكا قد شاهدت المشهد بأكمله، وتشجّعت الآن على الذهاب إلى المزارع.

- سيّدي، هل أنت من ليتوانيا؟

ابتسم المزارع مستمتعًا بسؤال الفتاة الصغيرة.

- نعم، أنا من ليتوانيا، لماذا؟

- سيّدي، أريد بشدّة أن أذهب إلى ليتوانيا. يمكنني العمل بشكل أفضل من ذلك الصبيّ، لست بحاجة إلى الكثير، كلّ ما أريده هو الحصول على شيء لأكله، فقط أخبرني ماذا أفعل وسأطبّقُ تعاليمكَ.

ضحك الرجل وقال باللغة الليتوانيّة: «هل سمعت ذلك يا زوجتي؟ تلك المرأة أرادت أن تبيعني طفلها، لكن يمكننا الحصول على هذه البنت مجّانًا».

- وأين والدتها؟

سأل الرجل مونيكا: «أين والدتك؟».

- أمرتني أمّي بأن أذهب إلى ليتوانيا. سأفعل كلّ ما تأمرني بهِ.

توقّفت، ثمّ أضافت هامسةً: «سيّدي، خذني معك...».

أعطت المرأة مونيكا بيضةً مسلوقة.

أخذتها مونيكا، وفتحت عينيها على مصراعيها، كما لو كانت خائفة.

قالت المرأة بالألمانيّة: «كُلي كُلي. لا تخافي. خذي ما أردتِ من العربة».

بحثت عينا مونيكا عن رينات، لكنّ أختها لم تُرَ في أيّ مكان.

مضت نحو العربة وأكلت البيضة بشراهة ورمت القشرة ضاحكة.

تحرَّكت العربة إلى الأمام بينما كانَ المزارع يقودها ويلوّحُ بسوطهِ كي يحثّ الحِصان على السير.

كانت مونيكا تجلس بجانب المرأة التي ألقت جلد خروف على حجر الفتاة.

«هل هناك جنّة التفاح في ليتوانيا يا سيّدتي؟».

ابتسمت المرأة وقالت:«هناك في الصيف».

سافروا بعيدًا، إلى عالمٍ مشغول بمقايضة الأرواح البشريّة بالبردِ اللّاذع.

واختفوا بعيدًا.

أسرعت رينات إلى المنزل لإخبار عائلتها بما شاهدته في السوق، لكنّ والدتها كانت تلوّح لها من بعيدٍ. قالت بريجيت: لاحقًا يا رينات. لقد ماتت العمّة مارثا.

ثمّ رأت رينات جارتهم مسجّاةً في الزاوية. كان الأطفال يركعون حولها وينظرون إلى أمّهم الميّتة. كانت لوت وإيفا تصلّيان.

«أين مونيكا؟» سألت والدة رينات.

أجابت رينات: «لقد ذهبت إلى ليتوانيا».

حدَّقت إيفا في الفتاة فترةً طويلة، ثمّ حنت رأسها ولم تقل شيئًا.

كان الأطفال المذهولون ينظرون إلى جثّةِ أمِّهم التي غادرت الحياة للتوِّ.

كانت العمّة لوت تقرأ الكتاب المقدّس بهدوءٍ، بينما والدة رينات تصلّي.

مرَّ الوقتُ. تغيَّر الضّوءُ بينما أكملت الشمس مسارها إلى أن اختفت ولم تعد مرئيّة على الجانب الآخر من العواصف الثلجيّة والغيوم الشتويّة التي لا نهاية لها. كان الجوُّ باردًا في سقيفة

الخشبِ،باردًا وهادئًا.

اعتقدت رينات أنّ مونيكا لم تعد، لا شكّ أنّها سافرت بالفعل إلى ليتوانيا.

قالت لوت: «لا فائدة من الانتظار، علينا دفن مارثا».

ردّت إيفا: «الأرض مجمَّدة، لن نتمكّن من دفنها، لن نكون قادرين على حفر حفرة».

- سنتعامل معها بطريقة مّا... لا يمكننا تركها هنا، أليس كذلك؟

كافحت العمّة لوت للوقوف على قدميها، وأخذت بعض الملاءات القديمة والقماش المشمّع من تحت اللوح الخشبيّ ووضعت عليها ذاك القماش. شاهد الأطفال المشهدَ في خوفٍ. وحدها جريت هرعت للمساعدة.

رفعت النساء جسد جارتهنّ باستخدام آخر ما لديهنَّ من قوة، ثمَّ وضعنها على الملاءة ولَفَفْنَها بها.

كافحت النساء والأطفال لحمل جثّة مارثا عبر الثلج العاصف، لذلك وضعوها على بعض ألواح الخشب وبدؤوا في السحب.

ظلّ ابن مارثا الأصغر، أوتو، يسأل: «إلى أين نأخذ ماما؟ لماذا هي ملفوفة هكذا؟ لماذا لا تقولُ أيَّ شيءٍ؟ إلى أين نأخذ ماما؟».

صرخت جريت:«أغلق فمك!» وبدأت تبكي. كانت دموعها

تجري كالأنهار على خدَّيها.

- لماذا لا تقول أيّ شيء، لماذا هي صامتة، لماذا هي باردة، لماذا تبدو مثل كتلة من الجليد؟

لأنَّ ماما لم تعد معنا ياأوتو، لأنّ هذه مجرّد جثّة باردة وميّتة، ولم تعد ماما بعد الآن، إنّها جثّة غريبة وباردة. هذا هو السبب يا أوتو، هذا هو السبب... لكن لا يمكنك قول ذلك لطفل صغير، ولن يجعل الأمور أسهل على أيّة حال.

- عد إلى الداخل يا أوتو.

قالت العمّة لوت: «بريجيت، خذي الصّغار إلى المنزل وانتظرينا هناك».

عبرت جنازة غريبة عبر الثّلوج العاصفة: جنازة بأربعة أشخاص، اثنين صغيرينِ وآخرَين كبيرين، جنازةٌ تحملُ حزمة طويلة خلفها.

- علينا دفنها هنا.

- لا يا لوت، لا... دعينا ندفنها في المكانِ المقدّس بالمقبرة.

لقد دُنّست الأرض بأكملها منذ زمن بعيد. المقبرةُ أيضًا دُنّست، ولم يعد ثمّة مكانٌ مقدّسٌ في هذا العالم.

يمكن رؤية صلبان عديدة من خلال الثلوج الدوّامة.

لقد ظهر موكب جنازة مارثا: موكبُ يضمُّ إيفا،لوت، جريت ورينات.

رغمَ كلِّ شيء، تمكّنوا من جرّ الجثّة إلى المقبرة.

لقد تجمّدت التّربةُ، لذلكَ لم يتمكّنوا من حفر قبر مناسب. وبدلًا من ذلك، حفروا حفرة ضحلة في الثّلج ووضعوا الجسد فيها، ثمَّ غطّوهُ مرّةً أخرى. صنعوا صليبًا من الأغصان ووضعوه على قبرٍ من ثلج يلفحهُ الصّقيعُ، فتلت النساء الصّلوات وصلّينَ.

«فليحمنا الرّب من هذا النوع من الموت، وهذا النوع من الجنازات ...».

«من يدري يا إيفا. يمكنك أن تري ما يحدث حولنا. من يدري ما ينتظرنا. لن نتمكّن من اختيار الوقت أو المكان».

سقطت جريت على ركبتيها في الثلج الذي استخدم لتوّه لتغطية جسدِ والدتها. كانت تبكي.

رفعت العمّة لوت الفتاة: «هيّا بنا، لنذهب يا عزيزتي الصّغيرة جريت».

«ستكون باردة هنا».

«إنّها في مكان أفضل الآن، أفضل من المكانِ الذي نحنُ فيه».

كانت الصور الظلّيّة الغريبة تتحرّك عبر الحقول البيضاء الرّحبة،

كان الثلج يرقص ويلعب في أحضانِ الرّيح،

يمكن رؤية المقبرة من حين إلى آخر

يمكنكَ أن ترى رقاقات الثلج الدوّامة،

والظّلام الآتي من بعيد،

هناك،

ثمّة نساء وأطفال تتمايلُ خيالاتهم في الرّيحِ

كما لو كانت أشباحًا...

كان يومًا شتويًّا باردًا وهادئًا. ثمّة مزلقة تجرّها الخيول الرّاكضة بخطى مفعمة بالحيويّة، ورجل مسنّ في مقعد السائق. على المقعد العريض خلفه جلست امرأة وبجانبها هاينز وألبرت. كان الأولاد يرتدون ملابس أكثر دفئًا الآن.

أوقف الرجل الحصان بصوت عالٍ «قف» عندما وصل إلى منعطف أدّى إلى الخروج من الطريق الريفيّ.

قال الرجل باللغة الليتوانيّة: «هناك بلدة صغيرة تقعُ أمامكم مباشرة، على بعد حوالي كيلومترين». ثمّ أضاف بضع كلمات باللغة الألمانيّة للتأكّد من أنّ الأولاد يفهمون الأمر. قال الرجل: «كيلومتران، بلدة».

شكر الأولاد الرّجل باللغة الليتوانيّة ومضوا.

تنهّدت المرأة قائلة: «أيّها الأولاد الفقراء، إلى أين ستذهبون؟».

شكرهما الصبية مجدّدًا، كانوا فرحين لأنَّ حقائبهم أصبحت الآن ممتلئة قليلاً أكثرَ من ذي قبل.

واصلت الزلّاجة مهمّتها ومضت نحو الغابة ثمَّ اختفت عن

الأنظار بينما كانت الأجراس ترنُّ.

لوّح هاينز وألبرت للزوجين واستدارا في الاتّجاه الذي أشار إليه المزارع.

سار الشابّان الألمانيّان عبر الحقول الفارغة التي تتلألأ تحت ضوء الشمس.

رأوا مزرعة محاطة ببساتين. من المدخنة، كان الدخان يتصاعد مباشرة إلى أعلى.

استداروا نحوه.

عندما اقترب الأولاد من البوّابة، بدأ كلب أسود شرس ينبح بشراسة.

- أنا متأكّد من أنّنا سنكسب القليل هنا.
- كوني سعيدة يا ماما، سنعودُ بالخبز!

فتحوا البوّابة.

خرج صاحب المنزل، ربّما ليرى ما كان كلبه متحمّسًا بشأنه. كان رجلًا ممتلئا. نظر إليهم بغضب.

بحذر، تقدّم الأولاد إلى الأمام.

- طاب مساؤك.
- ماذا تريدون؟ لسنا بحاجة إلى أيّ مشرّدين هنا، اخرجوا!

ألبرت، الذي لم يفهم أيًّا من الليتوانيّين، سأل هاينز: «ماذا يقول؟».

- أنا لا أفهم.

- أنت لا تفهم ما أقوله؟ اخرجوا، اخرجوا من هنا، ابتعدوا، ابتعدوا من هنا أيّها الصّعاليك!

- يمكننا العمل لصالحكَ.

- أنتم ألمان، عودوا إلى ألمانيا، لست بحاجة إلى أيّ ألمانيٍّ. اخرجوا وإلّا سأطلقُ الكلب عليكم.

قال ألبرت بهدوء: «إنّه غاضب جدًّا ياهاينز. لنذهب».

قال هاينز وهو خائف: «من الأفضل أن نركض، سيطلقُ الكلب علينا».

لم يضيّع هاينز أيّ وقت وبدأ في الجري. بعد فوات الأوان، أدرك ألبرت، الذي كان مرتبكًا قليلًا، أنّ المزارع قد أطلق بالفعل الكلب الضخم.

ركض الأطفال بأسرع ما يمكن. كان الكلب الأسود المرعب يركض نحوهم مباشرة. أدرك أنّه لن يتمكّن من مغادرة الفناء في الوقت المناسب، التفت ألبرت إليه وأخرج السكين.

رفع سلاحه. لن يستسلم، كان سيهزم ذلك الوحش.

كان هاينز يركض وهوَ ينادي صديقه، لكنّ ألبرت لم يكن

يستمع. استمرّ هاينز في الجري نحو الغابة.

هاجم الكلب. كان الصبيّ والوحش متشابكين،عوى الكلب على نحوٍ مثير للشفقة، كان هناك دم على الثلج. لقد قطع الصبي حلق الكلب.

رمى الصبيّ الكلب عن جسدهِ. كانا كلاهما ملطّخين بالدماء، وكان الصبيّ لا يزال يحمل السلاح في يده.

فركض المزارع حاملًا حبلًا في يده وبدأ بجلد الصبيّ، الصّبيُّ الذي ألقى بنفسه على المزارع مثل رجل مجنون وشقَّ يده بالسكين. صرخ المزارع وقفز إلى الوراء وهو ينزف.

وقف الصبيّ هناك، مغطًّى بعضّات الكلب وبيده سكّين ملطّخ بالدماء وهوَ يصرخُ: «سأقتلك، سأقتلك، سأقتلك!».

اعتقدَ المزارع أن الصَّبي مسعورٌ، فتراجع بعيدًا، وهو يستعرُ غضبًا، ثمّ ركض إلى المنزل للحصول على بندقيّته.

خرج الصَّبيُّ من البوّابة.

بمجرّد الخروج، بحث عن هاينز، لكنّه لم يكن في مكان يمكن رؤيته. انطلق ألبرت في الطريق، محاولًا الابتعاد عن المزرعة بأسرع ما يمكن.

خرج المزارع بسرعةٍ من المزرعة، صوّب البندقيّة وضغط على الزناد، لكنّ ألبرت كان بعيدًا جدًّا. لقد أخطأتهُ الرصاصة بينما ألقى

هو بنفسهِ على الطريق تحسّبا لذلك.

سمع هاينز، الموجود بالفعل في الغابة، صوت الرصاصة. لم يكن يعرف الاتّجاه الذي يجب أن يسير فيه، لكنّه استمرّ في المضي قدمًا، ليبتعد قدر المستطاع.

نهض ألبرت ونظر إلى الوراء ورأى المزارع يقف هناك، يحدّق في كلبه. من بعيد بدا الأمر وكأنه نقطة سوداء باهتة.

كان الولدان يبحثان أحدهما عن الآخر، هاينز بين الأشجار وألبرت يسير في مسار آخر. من وقت إلى آخر، كانا يتناديان، لكنّ كلًّا منهما فقد الآخر بالفعل.

مرهقًا، جلس هاينز على جذع شجرة. لقد فكّ الخبز بعناية من جريدته وكسر قطعة من إحدى الشرائح، وأخذ قطعة صغيرة من السمنة وأكل وهوَ يتضوّر جوعًا.

بدأ الظّلامُ يلقي بستائرهِ. كانت الغابة صامتة ومخيفة.

كان ألبرت يسير ويجرُّ خطواتهُ الثّقيلة على طولِ الطريق وقد نالَ منهُ التّعبُ بعدَ يومٍ طويلٍ. لم يكن هناك أشخاص حولهُ، فقط مجرّدُ غابة. فجأة، بدأ محيط الصبيّ يبدو مألوفًا. لقد كان متعبًا ومتعبًا جدًّا، بالتأكيد لن يصل أبدًا إلى المزرعة حيث سخرت منه الفتيات، وحيث تناولن البطاطس مع الدُّهون المقليّة في الغداء؟ لكن نعم، كانت هذه الأماكن مألوفة له حقًّا، ولا يمكن أن يكون مخطئًا في ذلكَ.

ظهر سقف المنزل من خلال الأشجار وأكوام الثّلج، وابتلع اليأس قلب الصبي مثلَ ماءٍ بارد. لا، لم يكن المنزل ودودًا، كان غير مأهول، حيث هاجمهم ذلك الفتى البرّيّ. هذا هو المكان الذي أخذ فيه ألبرت السكّين من مهاجمهم، السكّين الذي استخدمه للدفاع عن نفسه ضدّ الكلب الأسود. لم يكن هناك باب ولا نوافذ ولا حتّى سقف، لم يكن هذا مكانًا لقضاء الليل.

اقترب من المزرعة بعصبيّة ويقظة، حتّى لا يفاجئه هانسيل الصغير.

لبضع لحظات كان كلّ شيء هادئا. لم يقفز منه أحد. لم يكن هناك صوت واحد.

وجد ألبرت المكان الذي كانت فيه النار مستعرةً، حيثُ ثمّة وعاء به مرق مجمّدٌ الآن، وحيثُ كانَ هانسيل الصغير ممدّدًا على ظهره،ميّتًا ومتجمدًا في لوح من الجليد.

امتلأت إحدى عينيه بالثلج الناعم، أمّا الأخرى فقد كانت عينًا جليديّة تنظرُ إلى السماء في دهشةٍ.

كانت رينات تنظرُ إلى أغصان شجرة الزيزفون. كلّ شيء قد أُكِلَ بالفعل، ولم تستطع الوصول إلى مستوى أعلى. كانت تلتقط اللِّحاء البارد المجمَّدَ وتمضغه. كان الجوع يقضمها كما لو أنّه فأر يعيشُ في صدرها. كانت تفكّر كم سيكون من الجيّد الذهاب إلى الغابة، حيث لا بدّ أن تكون هناك أشجار بها الكثير من البراعم؛ كانت تفكّر في أنّه إذا وصل الربيع مبكّرًا فقط، فسيكون من الممكن العثور على جميع أنواع الأعشاب والحميض والتوت. كانت الريح تخترق ملابس الفتاة وتحرق وجهها. بسبب دوارها المستمرّ، كانت تمشي بحذر حتّى لا تسقط في طريقها إلى «منزلها»، سقيفة الخشب. كانت الحياة هناك صعبة التّحمّلِ، حيثُ ينأى هيلموت بلا نهاية، وينتحبُ أوتو على الدّوام ويبكي بين يدي جريت كما لو أنّها تريده أن ينام إلى الأبد. ولكن على الأقلّ كان هناك ماء ساخن وشاي من سيقان التوت في البستان. كانت شبه عارية.

دخلت رينات إلى مخزن الحطب. كان الظلام يحوّمُ في الداخل، مع نافذة صغيرة واحدة فقط تسمح بدخول الضوء. كانت العمّة لوت تمسك برأس إيفا المحموم وتساعدها في احتساء شاي التوت.

كما توقّعت رينات، كان هيلموت يبكي ويكرّر باستمرار العبارة نفسها مثل أسطوانة جرامافون عالقة: «أريد أن آكل، أريد أن آكل، أريد أن آكل، أريد أن آكل، أريد أن آكل». توقّف لفترة من الوقت، ثمّ بدأ في البكاء مرّة أخرى: «أريد أن آكل».

لم تستطع إيفا تحمّل أكثر من ذلك، وفجأة بدأت بالصراخ بصوت عالٍ قدر استطاعتها وبقدر ما سمحت به حالتها الضعيفة: «لماذا تئنّ دائمًا؟ الأمر ليس كما لو أن لا أحد يريد أن يأكل، كما لو كان الجميع ممتلئين. أنا أيضًا أريد أن آكل، فماذا أفعل؟ أنت تأكل دائمًا، ألا يمكنك الاكتفاء بالنوم؟». كانت إيفا تصرخ وتختنق بكلماتها الغاضبة التي لا علاقة لها بالأمومة وبدموع اليأس؛ كانت لوت تحاول تهدئتها وإسكاتها، ثمَّ بدأت إيفا بالصراخ عليها أيضًا. كانت تتلوّى وتتقلّب على سريرها، كما لو أن وحشًا مرعبًا غير مرئيّ يحاول الخروج منها، ربّما كان الجوع هو الشّيء الوحيد الذي تحمله في قلبها.

نهضت بريجيت أخت رينات الكبرى من حيث كانت جالسة وقالت: «سأحضر لك بعض الطعام، سأفعل!» ثمّ مرّت بجوار رينات، وخرجت. أغلق الباب خلفها، لكن لا يزال من الممكن سماع صوت وقع أقدامها في الثلج. أرادت رينات تهدئة والدتها وهيلموت. كانت تودُّ أن تبكي أيضًا، وأن تشعر بالراحة، ولكن كيف يمكنها فعل ذلك؟ كان الأمر مروِّعًا، وكلُّ الأيّام فظيعة وتزداد سوءًا. ركضت خلفَ بريجيت.

اندفعت رينات من الباب ونظرت حولها، كانت أختها الكبرى قد قطعت شوطًا طويلًا بالفعل، وسارت بخطى ثابتة وحازمة.

- إلى أين أنت ذاهبة، انتظري، انتظريني يا بريجيت! صرخت رينات وطاردتها، متعثّرة أثناء ملاحقتها.

- إلى أين أنت ذاهبة، ماذا ستفعلين؟

- إذا استطاع هاينز إحضار الطعام من ليتوانيا، فأنا أيضًا يمكنني ذلك. أنا لا أستطيع تحمّل أنين هيلموت وتوبيخ ماما بعد الآن، لا أستطيع، لا يمكنني تحمّل ذلك.

لم تتباطأ بريجيت، وحاولت رينات ألّا تتأخّر.

- أشعر بما تشعرين بهِ يابريجيت، أنت محقّة، خذيني معك.

خطت بريجيت دون أن تنبس ببنت شفة.

لم تكن الطريق قصيرة وكانت رينات لا تكاد تقدر على مواكبة ذلك، لكنَّها كانت مصمّمة على ألّا تتخلّف عن الركب. عبرتا مساحة مهجورة، متشبّثتين بسياج معدنيّ، ثمّ لم تكن السكّة الحديديّة بعيدة على الإطلاق. كانتا تمشيان وعيونهما إلى الأرض، محاولتين تجنّب الجنود الذين بدا أنّهم ينتظرون شيئًا مّا في المحطّة. كانوا متّكئين على أسلحتهم، يدخّنون التبغ النتن ويمزحون. كانت النساء اللواتي يحملن حزمًا كبيرة مربوطة في ملاءات ينتظرن أيضًا، ربّما قطارًا، وربّما شخصًا مّا، بينما ينقرُ عمّالُ السكّة الحديديّة على عجلات القطارات بمطارقهم.

انزلقت الفتاتان بين عربات أحد القطارات، وواصلتا السير في خطٍّ آخر من القطارات. أثناء سيرهما على طول السّكة، رأتا مجموعة ثانية من الجنود، من الواضح أنّهم كانوا في طريقهم إلى ديارهم في روسيا، وسيمرّون عبر ليتوانيا. كانوا يستقلّون عربة ذات جوانب خشبيّة ويحملون معهم حقائبهم وحزمهم.

قالت بريجيت: «أنا متأكّدة من أنّ هذا القطار سيأخذنا إلى وجهتنا».

سارتا على طول القطار بحثًا عن عربة مفتوحة. في النهاية اكتشفت بريجيت واحدة. نظرت الفتاتان حولهما وسرعان ما صعدتا إلى الداخل، صعدت بريجيت أوّلًا، ثمّ أمسكت رينات بيد أختها وتمكّنت بطريقة مّا من التّسلّق وراءها. كانت الغربة خافتة. كان التبن والقشّ مكدّسين عند الواجهة الأماميّة، وكانت هناك أكوام عديدة من السماد على الأرض؛ من المؤكّد أنّ هذه العربات قد استخدمت لنقل الخيول.

قالت بريجيت: «نحن بحاجة إلى الاختباء في القشّ».

يمكن سماع أصوات في الخارج، تتحدّث باللغة الروسيّة وتضحك. سمعت الفتاتان الناس يقتربون. اختبأتا في التبن قدر استطاعتهما. فجأة انفتحت أبواب العربة، واندفع الضوء إلى الداخل وبدأ الجنود يصعدون إلى العربة واحدًا تلو آخر. كانوا سعداء، وهم في طريقهم إلى ديارهم، عائدين منتصرين من الحرب. كان بإمكان رينات رؤيتهم وهم يمزحون ويتصارعون، ويضربون

بعضهم بعضًا في الخلف؛ كان هناك حوالي عشرة منهم، وربّما أكثر. صرخ ضابط في الخارج متوجّهًا إليهم بشيءٍ مّا. أجابوه بصوت جادّ بينما أجابهُ أحدُ الجنودِ بتحيّة. لم يغلقوا أبواب العربة بالكامل، لكنّهم تركوا فجوة. جلس بعضهم على الأرض وأرجلهم تتدلّى من الأبواب المفتوحة وأشعلوا سجائرهم؛ وضع آخرون حقائبهم على الأرض، وأخذوا الطعام من حقائبهم وبدؤوا في تناول الطعام. سقط آخرون على القشّ، وكاد أحدهم يلامس رينات. كانت الفتاة تحاول ألّا تتنفّس، وهي تشمّ رائحة التبغ المنبعث من الجنديّ، لكنّه لم ينتبه إليها. كان متعبًا ويحاول الحصول على قسط من النوم.

أخيرًا تحرّك القطار، لكنّ الجنديّ استدار إلى جانبه وشعر بشيء حيّ بجواره في القشّ. تفاجأ فجلس واكتشفَ أنّها فتاة. كانت عينا رينات مفتوحتين على مصراعيهما ومليئتان بالخوف. قال لها الجندي شيئًا مّا. ارتعبت الفتاة وقفزت من فوق القشّ وركضت نحو أبواب العربة. فوجئ الجنود إلى درجة أنّهم لم يتحرّكوا لمنعها، فقفزت من القطار الذي كان يسيرُ فعلًا بسرعة عالية. صرخ أحدهم بشيء مّا بعدها باللغة الروسيّة. وجد الجنود الذين أذهلهم الحادث بريجيت، لكنّهم الآن في حالة تأهّب. حاولت بريجيت تجنّب الوقوع في قبضتهم؛ أرادت الهروب، والقفز وراء أختها، لكنّ الجنود منعوها. كانوا يقولون: «لا تخافي، لماذا أنت خائفة؟ لن نفعل لك شيئًا، ستقتلينَ نفسك، لا تقفزي، ستقتلين نفسك!».

- أختي، أختي، أختي رينات، دعني أذهب، دعني أذهب!

صاحت بريجيت.

حاول الجنود يائسين منعها.

- اهدئي، اهدئي، ستقتلين نفسكِ! لا يمكنك القفز يا فتاة، لن نفعل أيّ شيء لك، لماذا أنت خائفة؟ لا تخافي!

صمتت بريجيت. كان القطار يتحرّك بسرعة، ويسير بشكل أسرع وأسرع، ومن خلال الأبواب المفتوحة، يمكن للأخت الكبرى أن ترى كائنًا مرميًّا يرتدي مجموعة من الملابس يتلاشى شيئًا فشيئًا خلفها ولم يتطلّب الأمر الكثير كي تعلمَ أنَّ ذلكَ الكائنَ هو أختها. كانت رينات مستلقية على الثلج والجليد كما لو كانت ميّتة.

يمكن لرينات أن تسمع القطار من بعيدٍ. نهضت ببطء. نزلت قطرة دم من صدغها. بعد أن قفزت من القطار، اصطدمَ رأسها بكتلة مَن الجليد، لكنّها كانت تتعافى تدريجيًّا. توقّف العالم عن الدوران، والطيران، والتأرجح، واختفت البقع السوداء، ثمّ فهمت رينات ما حدثَ: كانت بريجيت في طريقها إلى ليتوانيا بمفردها.

يمكن للمجاعة والبرد أن يكسرا النّاس ويَهْزِمَاهم. وبذلك يتحوّلونَ إلى آلات معدنيّة فارغة لا تأمل في شيء، ولا تخاف شيئًا ولا يفاجئها شيء. يمرُّ الوقت ببطء دون أن يتغيّر شيء فتصبح الحركات ميكانيكيّة، مثلها مثل الأفكار.

قالت العمّة لوت: «كان من الأفضل له لو أنّه مات».

كان هيلموت يئنّ مرّة أخرى، ويقول الشيء نفسه مرّات ومرّات. كان أنينه شبيهًا بضجيج مثقابٍ كهربائيّ.

قالت إيفا: «أريد أن أموت أيضًا».

تنهّدت لوت قائلة: «إنّهم قادمون، إنّهم قادمون».

يمكن سماع صدى خطواتهم من بعيد. لقد كانوا قادمين حقًّا، ربّما كانَ صوتُ الجُوع صاخبًا وحادًّا إلى درجة أنّهم قادرون على سماعهِ عبر الجدران.

جنود.

طرقوا الباب. لكنّ الباب لم يُغلق منذ فترة طويلة وسمحوا لأنفسهم بالدخول. دخلَ ملازم أحمر الخدَّين بحاجبين كثيفين،

واثنين من الجنود الآخرين.

قال بالروسيّة: «اجمعوا أمتعتكم. اجمعوا أمتعتكم معًا ولنبدأ».

إلى أين؟ سألت لوت. إلى أين نتّجهُ، لماذا نغادرُ سقيفتنا الخشبيّة؟ لكن لا، لم تسأل، لقد أرادت فقط أن تسأل، ولكن ما الهدف؟ لم يكن هناك شيء، لقد أخبرهم أن يجمعوا أمتعتهم معًا، وهذا ما يتعيّن عليهم فعله.

قالت إيفا: «أطفالي بالخارج، فتاتاي ليستا هنا. علينا أن ننتظر أطفالي».

قال الملازم: «لن ننتظر أطفالك. لن ننتظر، ليس هناك وقت للانتظار».

سألت لوت:«إلى أين تأخذنا؟».

- نحن نجمع الجميع في المقرّ، وبعد ذلك سيتمّ نقلك إلى العمل.

- العمل؟

ستحصلون في المقابل على قسائم طعام وبعض الخبز. يجب على شخص مّا ملء الخنادق والمخابئ المتبقّية من الحرب.

جمعت العمّة لوت وجريت ما استطاعتا جمعهُ من أمتعة: الملابس والأحذية وأيّ شيء قد يساعد على تحمّل البرد القارس. شعرت لوت بالأسف لتوديع الموقد المعدنيّ، لكن كيف يمكنهم أخذه

معهم؟

قال الملازم وقد نفدَ صبرهُ: «أسرعوا، إلى متى تتوقّعين منّا أن ننتظر؟».

أخيرًا ذهبوا إلى الفناء، حيث كان هناك اضطراب: بقرة المرأة الروسيّة لا تكاد تستطيع الوقوف ولم تعد تعطي المزيد من الحليب. كان ثمّة رجل يسحبها من الحظيرة إلى الفناء.

قال:«أطلق النار على هذا الحيوان. أطلق رصاصة عليها».

- يجب إطعامها. انظر ماذا يحدث إذا لم تطعمها؟ ضحك الجنديّ المسنّ ذو الشارب السّميك، كلّ ما تبقّى منها هو العظام والعينان.

- ماذا أطعمها؟ ما الذي يمكننا إطعامها عندما لا يكون هناك علف؟ قالت المرأة.

وضعَ الجنديّ هدفهُ وضغط على الزناد. دوّى صدى الطلقة بصوت عال وحاد. انهار الحيوان ولم يقم مرّة أخرى.

قال صاحب البقرة: «على الأقلّ سيكون لدينا بعض اللحوم الآن».

كان أوتو ينظر بعينين واسعتين إلى الحيوان الميّت. أرادت جريت أن تسرع بأخيها فأسقطته أرضا.

- اجلس في الزلّاجة يا أوتو، اجلس.

اقتاد الجنود النساء والأطفال. كانت الرّياح الجليديّة تعصفُ بالثّلوج. تعصفُ على أنقاض المنازل من حولهم، وحظائر الحيوانات المحترقة، والعربات المكسورة، والصناديق الفارغة، وحقائب السفر الممزّقة، وعربات الأطفال المكسورة. كان الثلج متّسخًا بالسخام، وببقع دمٍ سوداء، أو بقع زيت.

كانت هناك جثث مجمَّدة على جانب الطريق، وعلى مسافة قصيرة من الطريق كان النَّاسُ يجلسون على جذوع الأشجار. سأل الأطفال: «لماذا يفعلون ذلك، ماذا ينتظرون؟» أوضحت لوت: «لقد ماتوا، لم يعد بإمكانهم المشي، لقد جلسوا حتّى تجمَّدوا».

كانت لوت وجريت تسحبان الزلّاجة التي كان يجلس فيها هيلموت وأوتو، بينما كانت إيفا تسير في الخلف؛ عيناها تنغلقان، وتشعرُ بأنّ ساقيها شبيهتانِ بجذوع شجرة. كان البرد والجوع يقضمانها مثل دودة حديديّة استقرّت في صدرها، وكلّ ما أرادته لحظتها، هو الموت.

كانت رينات تسير في اتّجاه المنزل. في الطريق صادفت مجموعة من الجنود المخمورين بدوا أنّهم يريدون الإمساك بها، لكنّهم كانوا في حالة سكر شديد. كان أحدهم ملقًى على الطريق، أمّا الآخر فقد كان يضحك. وبدؤوا يتقاتلون. سارعت إلى الابتعاد عنهم.

عادت إلى المنزل وهي جائعة ومتعبة. في الخارج، كانت ثمّة عاصفة ثلجيّة مستعرة.

لم يكن هناك أحد في المخزن، ولا أحد في المنزل. نادت الفتاة.

- ماما، العمّة لوت! ماما، العمّة لوت!

كان الجوّ باردًا في الداخل.

خرجت إلى الفناء، حيث رأت الجارة السمينة تحمل بين ذراعيها قطعة كبيرة من اللحم.

تجوَّلت رينات في أنحاء البلدة الصغيرة بحثًا عن عائلتها. ذهبت إلى السوق الذي كانَ فارغًا حينها، ومشت في شوارع عديدة أخرى. في النهاية عادت في اتّجاه المنزل.

أوقدت الموقد المعدنيّ وجلست رينات بجانبه محاولة أن تتدفّأ.

لفَّت الخِرَقَ بإحكام حولها ونامت.

كانت تحلم بالسلام. رأت والدتها المبتسمة، التي كانت جالسة في مرج صيفيّ، تعلّمها القراءة من كتاب جميل. فجأة ظهرت سحابة في السماء فخافت والدتها. أرادت رينات أن ترى الشّيءَ الذي أخاف والدتها، لكنّها لم تسمح لها بذلك. أدارت رأس رينات بعيدًا. لقد غمرهم هذا الحزن، والخوف، حتّى إنّ كلًّا من المرج والكتاب أصبحا ملتويين، كما لو كانا يجفَّانِ، وذبلت مثل قطعة من الجلد القديم، ثمّ بدأ كلّ شيء يتفكّك وذابَ وجه أمّها كما لو كان مصنوعًا من الشمع.

كان هاينز متعبًا. لم يكن لديه أيّ طعام ولم ينم منذ فترة طويلة، ولا يكاد يقدر على المشي. وصل إلى بلدة كان فيها سوق. لفت انتباهه مزارع مرح. بدا طيّب القلب. تقدَّمَ الصَّبيُّ إليه وطلب القليل من الخبز. أعطاه الرَّجلُ رغيفًا، وقدَّمَ له بعض المشروبات الكحوليّة القويّة المصنوعة منزليًّا، لكنّ الصبي لم يتناولها. سأل الرجل عمّا إذا كان بحاجة إلى مساعدة. قال له الرجل أن يرفع سلّة بها بطاطس. على الرغم من أنّه كان متعبا، بدأ الصبيّ في الرفع. «ارفعها، ارفعها، ارفعها»، كرَّرَ المزارع ذلك وحرّضه على رفعها وصفّق بيديه في سرورٍ. عندما رفع الصبيّ السلَّةَ فوق رأسه، صرخ الرجل: «برافو، برافو!». خافت امرأة من الصراخ فاستدارت وهرعت بعيدًا. قال الرجل: «انتظر قليلًا، سأبيع البطاطس قريبًا، وبعد ذلك يمكننا العودة إلى المنزل. أحتاج إلى عمّال مثلك. أنا حقًّا بحاجة إلى أطفال أقوياء جيّدين مثلك. ستكون زوجتي سعيدة، ستكون سعيدة حقًّا. سنذهب نحن الاثنان إلى المنزل معًا، وبعد ذلك سيتعيّنُ عليكَ مساعدتي. لدينا الكثير من العمل في المنزل،

وأنت رجل حقيقيّ يمكنك القيام به وستقدّمُ لي يد المساعدة».

الآن، هما يعملان معًا، الصبيّ يبيع البطاطس، كما قيل له، أمّا المزراعُ فيشرب الخمر. كان مخمورًا جدًّا، وفي بعض الأحيان يفتحُ الأغاني ويروي القصص، لكنّ معرفة الطفل باللغة الليتوانيّة كانت لا تزال ضعيفة.

بِيعَتْ آخر حبة بطاطس، وانطلقوا في اتّجاه منزل المزارع في عربة يجرّها حصان. كان المزارع يغنّي. بعد فترة استلقى وغطّى نفسه بجلد غنم. كان الولد خائفًا، إذا ضاعوا، فمن سيقود الحصان إلى الاتّجاه الصحيح؟ لكنّ المزارع أشارَ إليهِ بأنّهُ يعرف طريقه إلى المنزل.

ألقى بعض الجنود المارّين نظرةً مريبة على الصَّبيِّ الجالس في العربة. كان المزارع نائمًا.

كان هاينز والمزارع يسافران على طول طريق ترابيّة تقود إلى مسافة بعيدةٍ، حيثُ يتحوَّلُ الجليد الذائب إلى طين.

سافرا عبر الحقول لفترةٍ من الوقتِ، ولكن بعد ذلك فجأة وبدون تردّد، استدار الحصان يمينًا واتّجهَ إلى الغابة.

كان الهدوء شديدًا بين الأشجار إلى درجة أنّ فكرةً برزت بشكل غير متوقّع في رأس هاينز. إنّه هدوء لا يمكن أن يكون إلّا تحت الماء، ولكن بعد ذلك فقط طار اثنان ضخمان من طيور القيقان فوق رأس الصبي، مثل رصاصتين عملاقتين تطارد إحداهما الأخرى.

كانا فوقَ أغصان شجرة التنّوب، فتساقط الثلج كالطَّحين. جفل الصبيّ، لكنّ الحصان واصل السير بالوتيرة نفسها. أطلق مالك العربة شخيرًا عرضيًّا. وجد الصبي من المحيّر أنّ الرجل لا يبدو خائفًا من أيّ شيء.

سافرا لفترة طويلة، واستدار الحصان مرَّةً أو مرّتين إلى أسفل حتّى في الممرّات الضيّقة، حيثُ توجدُ أكاليل من أشجار التنّوب التي حجبت السماء وزرعت الظّلمة. كان الولد خائفًا، لكنَّه طمأن نفسه بفكرة أنّه إذا تعرّضا لأيّ خطر فلن ينام الرجل. انتهت الغابة مرّة أخرى، ومرّا على عدد قليل من المزارع، لكنّ البلاد كانت لا تزال مهجورة، كما لو أنّ كلّ شيء من حولهما قد مات. لا يمكن سماع غير النِّداء الرفيع المتقطّعِ من حين إلى آخر، أو صدى صوت الغراب القويّ والمريح قادمًا من مكان ما بعيدٍ.

توقّف الحصان، كما لو كان يطيع أمرًا غير معلن، عندما وصل إلى جسر صغير. لم يكن الصبيّ يعرف ما يجب أن يفعله الآن - لم يتمكّنوا من التوقّف هنا والبقاء إلى الأبد وسط أرض جوفاء، محاطة بغابة. ولكن ما إن فكّر في هذا الأمر حتّى استيقظ المالك فجأةً، وقفز من العربة محدثًا ضجيجًا غريبًا ثمَّ نفخَ بفمهِ مُخرجًا أنفاسهُ التي كانت شبيهة بالسُّحب، ثمَّ تبوّل على جانب الطَّريق. بعد ذلك وقف برهةً وتثاءبَ. ارتدى سرواله واستدار، وبينما كان يستعدُّ للصعود إلى العربة ومتابعة رحلته، رأى الصَّبيَّ. وقف الرَّجلُ مذهولًا. نظر إليه هاينز، وكان غير قادر على معرفة ما كان

يحدث.

سأل الرجل: «من أين أتيت؟ ماذا تفعل في عربتي؟».

حاول هاينز أن يشرح باللغة الألمانيّة وشيءٍ من اللغة الليتوانيّة أنّهما كانا يسافران معًا، وأنّهما اتّفقا على العملِ في مزرعته.

- أيّ مزرعة؟ لست بحاجة إلى أيّ عمال، نحن نفعل كلّ شيء بأنفسنا، ما تقولهُ مجرَّدُ هراء. لماذا نحتاج إلى توظيف أولاد معنا؟

- لكنّنا اتفقنا، لقد قلت إنّك بحاجة إليّ، وقلت إنّني سأكون عونًا لك، وقلت إنّك معجب بي، وإنّني عامل جيّد.

- لا، لا، لا، لسنا بحاجة إلى أيّ عمال، لسنا كذلك، وعلى أيّة حال، أيّ نوع من العمّال ستكون؟ لا، لا، انزل من عربتي، ماذا ستقول زوجتي إذا أحضرتك إلى المنزل؟ سوف تطردنا معًا!

هاينز، الذي لا يزال غير قادر على تصديق ما كان يحدث، نزلَ من العربة ببطء معتقدًا أنّه ربّما لم يفهم الرجل بشكل صحيح، كما لو كان يأمل في سماع الرجل يحثّه على البقاء، أخبره أنّهما سيواصلان العمل معًا. لكن لا، لم يحثّه أحد على البقاء، ولم يكن أحد يقول إنّه ينبغي عليهما المضيّ قدمًا معًا. نظر الصبيّ إلى الرجل، لكن السكّير، الذي استيقظ الآن من سكرتهِ، لوَّح بسوطه على رأسه ثمّ تمتم بشيء مّا، وهزَّ رأسه كما لو كان غير مصدِّقٍ أنّه كان بإمكانه

النهوض على مثل هذا الهراء وهو في حالة سكر: لقد كنتُ على وشكِ أن أوظِّفَ فتى ألمانيًّا. أطلق السوط في الهواء وواصلت العربة سيرها على ظهر حصان الخليج المطيع.

وقفَ هاينز الآن، وحيدًا وسط الغابة المتوحّشة، في منتصف الشتاء حيثُ لا نهاية تلوح في الأفق.

كان الظلام يخيّمُ ببطء. والثلج على أغصان الأشجار وعلى طول الطريق يتحول إلى اللون الأزرق، حيث كانت الغابة أكثر كثافة، كانت بالفعل، سوداء تمامًا.

كان الصبيّ يسير على طول حافّة الغابة، يسقط القلق واليأس على رأسه مثل رقاقات الثلج الكثيفة. كانت رقاقات الثلج الحقيقيّة ناعمةً ورقيقةً مثل كرات الصوف القطنيّ، بحجم كفّ طفلٍ. لم يرد هاينز أن يستمرّ، لقد أراد فقط أن يستلقي في ثلج النسيان هذا ويبقى هناك، مغطّى بالثلج، إلى الأبد؛ لكنّ الصبيّ عرف أنّه إذا نام لن يستيقظ مرّةً أخرى، وكانت والدته ورينات وهيلموت ومونيكا وبريجيت ينتظرون عودته إلى المنزل، في انتظاره لأنّهم يتضوّرون جوعًا حتّى الموت، ولذا كان على هاينز العودة، كان عليه أن يعود.

واصل المشي بالوتيرة نفسها. كان الظَّلامُ يخيّمُ على الغابة والخوفُ يخيّمُ على قلبهِ. فجأةً كان هناك وميضٌ، كما لو كان ضوءًا صغيرًا ولكنّهُ ضوءٌ ساطعٌ، يسطعُ من بعيدٍ.

جمع هاينز القوَّةَ التي مازالت في داخلهِ واتّجه نحو الضوء الصغير. اختفى وعادَ إلى الظهور من جديدٍ. أدرك الصبيّ أنّ الأشجار كانت تخفي المنارة الغامضة. في النهاية وصل إليه. لم تكن نارًا كما اعتقد في البداية – لا، لقد كانت قادمة من مصباح البارافين في النافذة. كان باقي الكوخ مظلمًا وكئيبًا.

اقترب الصَّبيُّ بحذر خوفًا من وجود كلب حراسة. لكن لا يبدو أنّ هناك واحدا. تسلَّل إلى النافذة وحاول النظر إلى الداخل، لكنّه لم يتمكّن من رؤية أيّ شيءٍ من خلال الجليد الذي غطّى اللوح.

استرقَ السّمعَ. كان يعتقد أنَّ بإمكانهِ سماعَ الضّحكات.

ذهب إلى الباب وطرق.

لم يأت أحد لفتح الباب، طرقه هاينز مرّة أخرى، بقوّة أكثرَ هذه المرّة.

سمع خطوات تقترب بالإضافة إلى صوت رجل غاضب.

- من هنا؟

أجاب الصبيّ: «لقد ضعت، الرجاء مساعدتي».

مرَّت لحظات طويلة من المعاناة، وعندما فقد الأمل في أنّ الباب سيفتح، سمع صوت مزلاج يتحرّكُ.

«ماذا تريد؟» سأل رجل ملتحٍ يرفع مصباح البارافين ويضيئه في وجه الصبيّ.

- لقد ضعتُ، أرجو أن تساعدني.

مضى الرجل إلى الخارج، ونظر حوله كما لو كان يريدُ أن يتأكّدَ ممّا إذا كان الصبيّ وحده بالفعل، ثمّ قال: «تعال». تجاوز هاينز العتبة وأغلق الرجل الباب خلفه. كانت رائحة التّبغ تفوح من الشرفة، وعندما دخل الصبيّ غرفة المعيشة الرئيسيّة بدأت عيناه تتأرجحان. كان الهواء كثيفًا بالدخان إلى درجة أنّه من الممكن أن تقطعه بفأس.

عبرا الغرفة حيث كان ثمّة سبعة رجال يجلسون على طاولة كبيرة يحدّقون في هاينز.

عُلِّقت على الحائط صورة ملطَّخة بالدخان للقدّيس جورج وهو يقتل التنّين.

«ماذا تريد؟» سأل رجل طويل الشعر، كان جالسًا في منتصف الجدار، مباشرةً تحت الصورة المقدّسة.

- لقد ضعتُ، أشفق عليّ. أريدُ أن آكلَ شيئًا، أكادُ أتجمّد.

غمغم الصبيّ باللغة الليتوانيّة.

قال الرجل وهو يدفع كأسًا من الكحول القويّ على الطاولة: «ليس لدينا أيّ شيء نأكله، ولكن هناك شيء نشربه». وحثّه قائلا: «لا يمكنك البقاء هنا، لذا اشرب واذهب. المشروب سيمنعك من التجمّد».

اقترب هاينز من الطاولة، والتقط الكأس وشربها دفعةً واحدةً فسعل. كانَ طعمها مروّعًا، أحرق حلقه ولم يستطع التنفّس. راقب

الرجال الصبيّ دون أن يتفوّهوا بكلمةٍ، فامتدّ الصمت وأصبح مربكًا. جذبهُ الرجل الذي أدخله من كتفه وقال: «اذهب. اذهب، لا يمكنك البقاء هنا، اذهب وانسَ أنّك رأيتنا من قبل».

وجد هاينز نفسه في الخارج مرّة أخرى. كان الجوّ باردًا، لكنّ الكحول كانت تحرق أحشاءه، ممّا جعله خفيفًا.

سرعان ما سار مرارًا وتكرارًا، مرارًا وتكرارًا، راغبًا في الابتعاد قدر المستطاع عن الكوخ. كان الأمر كما لو أنّ رجليه تحرّكتا من تلقاء نفسهما، وكأنّهما لا تنتميان إليه، وكأنّهما مسؤولتان عن نفسيهما فقط.

في النهاية ظهرت بعض المباني، وسمع صوت المحرّكات، ما بدا وكأنّه أضواء سيّارة تسطع في عينيّه مباشرة. لم يعد بإمكان هاينز مقاومة النوم. بدأ العالم في الدوران فانهار وسقط في سبات عميق.

كانت رينات تتجوّل حول المدينة الصغيرة. ذهبت إلى السوق ورأت رابولاس العجوز، الذي قدّم لها الخبز في آخر مرّة.

طلبت الخبز مرّة أخرى، فأعطاها العجوز رغيفًا رقيقًا.

كان رابولاس رجلًا عجوزًا غريبًا، يضحك في لحظة، ويخاف في اللّحظة التالية، ثم يخيّمُ عليهِ الحزنُ. كانت الفتاة حذرة منه قليلًا، لكن لم يكن لديها خيارٌ آخر.

أرادت الذّهاب إلى ليتوانيا. قال الرجل العجوز إنّه سيأخذها وطلب منها أن ترقص له.

رقصت رينات. كان النّاس يشاهدون الأمر، فضحك العجوز رابولاس.

وصلت أونا زوجتهُ. أخبرها أنَّ رينات ستذهب معهما إلى ليتوانيا. كانت المرأة العجوز تحبُّ الفتاة.

امتطى رابولاس وأونا ورينات عربة يجرّها حصان، بينما كانت المرأة العجوز تعلّم الفتاة بعض العبارات الليتوانيّة، قالت إنَّهُ من الآن فصاعدًا سيكون اسمها ماريتا. كانت الفتاة تتعلَّمُ أن تقول

«اسمي ماريتا» باللغة الليتوانيّة. أوضحت السيّدة العجوز أنّ الأمر مهمٌّ جدًّا، لأنّ الجنود سيتحقّقون ممّا إذا كانت ألمانيّة. حاولت رينات جاهدة أن تتذكّر الكلمات الأجنبيّة.

وصلوا إلى الجسر المعلّقِ فوقَ نهرِ نيمان.

أوقفهم الحرّاس. سألوا الفتاة: ألست ألمانيّة؟

ظلت رينات تردّد باللغة الليتوانيّة: «اسمي ماريتا».

دفع الرجل العجوز «الرسوم الجمركيّة» المطلوبة، ولكن فجأة انطلق المنبّه المختبئ في القشّ.

اكتشف الجنود الساعة الباهظة الثمن، بالإضافة إلى الأشياء الأخرى التي كانت مخبّأة. ضربوا الرجل العجوز وصادروا كلّ ما عثروا عليهِ ثمَّ أطلقوا سراحهم.

بعد عبور الجسر والسير لمسافة أبعد قليلًا، توقّف الرجل العجوز. بدأ يصرخ بأنَّ هذا كلَّهُ كان خطأ رينات، وأنه لولاها لما أوقفهم الجنود.

لقد أخبرهم بأنّهم كانوا في ليتوانيا، والآن بعد أن اصطحبها إلى هناك، عليهِ أن يتركها.

نزلت رينات وتركوها واقفةً وسط الحقول الرّحبة. ولكن بعد لحظات، توقّفت العربة مرَّة أخرى؛ يبدو أنّ المرأة العجوز تحدّثت إلى رابولاس.

أشارت إلى رينات، التي انطلقت عائدة إلى العربة.

صعدت رينات إلى العربةِ، واختفت في المسافة.

الظّلمة... الظلمة...الظلمة...

لقد ظلّ الظلامُ مخيّمًا لفترةٍ طويلة. كان الظلام دامسًا، ومن ظلمتهِ الموحشةِ،اندفعَ صوتُ امرأةٍ تغنّي بنغمة مبهجة. كان من الصعب نطق الكلمات، لكنَّها كانت أغنية صادرة عن أمٍّ.

فتح هاينز عينيه. كان شعره عالقًا في جبهته المغطّاة بالعرق.

كان كلّ شيء من حوله خفيفًا. أمّا هو، فقد كان مستلقيًا في ملاءات بيضاء.

رأى هاينز امرأة تقف بجانب النافذة، تدندنُ بِأغنيةٍ جميلة. كانت تنظُرُ عبر النَّافِذةِ، وكان الضَّوءُ يتساقط من خلال ستائر الدَّانتيل.

أدرك هاينز أنّها كانت والدته. كان يعلم حينها أنّ كلّ شيءٍ تحمّله كان مجرَّدَ حُلُمٍ رهيب.

كانت شفتاه جافَّتين ويُعاني من الحُمَّى، لكنَّه كان يبتسم ويقول: ماما... ماما...

ولكن بعد ذلك امتلأت عيناه بالخوف وخيبة الأمل - لم تكن المرأة والدته، لقد اختفى وجهها وعوّضه وجه شخص غريب.

كانت امرأة جميلةً. ابتسمت بلطف لكنّها لم تكن والدته.

كانت غريبة.

حتّى الضوء بدا وكأنّه يتغيّر - أصبح كلّ شيءٍ فجأة رماديًّا. نطقت المرأة بشيءٍ مّاباللّغة الروسيّة.

«أليكسي، إنّه مستيقظ، إنّه مستيقظ! الصبيّ مستيقظ!».

كان هاينز يحاول الصراخ، وأراد أن يُشكِّلَ صرخةً بخَوفِهِ وخيبةِ أمله. كان يتخبّطُ على السَّرير ممسكًا بوسادته بعدما نالَ منهُ التّعبُ.

خافت المرأة. هرعت إلى سرير الصَّبي ووضعت ذراعيها حوله وحاولت تهدئته.

كانت تقول، بالروسيّة: «لا حاجة إلى ذلك. كنت مريضًا. لا حاجة إلى ذلك، لن يؤذيك أحدٌ هنا».

اندفعَ قبطانٌ من الجيش الأحمر من الغرفة، كان منزعجًا من صوتِ المرأة. لقد اندفعَ بمكرٍ، وأطلَّ بظهرهِ المُستقيم ووجههِ الحادّ والذَّكيّ: ربّما كان من عائلة ضبّاط قديمة.

كانت المرأة زوجته،ألينا، المترجمة الألمانيّة. كانت تنتظر ولادة طفل، وكانت بالفعل في شهرها الثامن.

كانت أليونا تمسِّدُ رأسَ هاينز الذي يُتمتِمُ، لكنَّ كلماته لم تكن صحيحة، لم يبدُ مستيقظًا تمامًا حينها.

«لم أفعل أيّ شيء، أريد فقط العودة إلى المنزل..»

امتلأت عينا الصبيّ بالخوف عندما التقتا بنظرة الضابط الثاقبة.

أليونوشكا، لقد أخبرتك أنّه ألمانيّ!

«إنّه طفل، مجرّد طفل مريض. اهدأ،اهدأ، ابني العزيز، إنّه أليكسي الذي أمامكَ».

عانقت ألينا هاينز وربّتت على رأسه، فغمرهُ الهدوءُ. لقد وثق في هذه المرأة الجميلة والطّيبة، التي ذكّرته بأمِّهِ.

بلدة ليتوانيّة صغيرة، زاوية شارع، عدد قليل من المارَّةِ. كان الوقت متأخرًا بعد الظهر.

كانت رينات ترقص على اللّحن الغريبِ الذي يعزفهُ رابولاس. كانوا يبيعون سلال خوص محلِّية الصُّنع. احتوى الغطاء الذي يقعُ عند قدمي رينات على عدد قليل من العملات المعدنيّة الصغيرة.

كانت لديها دوائر سوداء أمامها، وكان وجهها متسّخًا. والرجل العجوز يعزف على نغمة خفيفة ومرحة. لم يكن أحد يشتري سلال الخوص التي نسجها.

جاءت امرأة مسنّة ووقفت هناك فترةً من الوقت، وهي تنظر بشفقة إلى الفتاة الراقصة والرجل العجوز المجنون. وجدت المرأة بعض العملات المعدنيّة في حقيبتها وألقت بها في الغطاء.

كان العجوز رابولاس سعيدًا ومبتسمًا، وأظهر أسنانه الصفراء قائلا: «شكرا سيّدتي العزيزة، سوف نصلِّي من أجلِ الخيرِ المُزهرِ في قلبك، سندعو لكِ بالصحّةِ. اشكري السيّدة على كرمها! والآن،سيّدتي، كوني لطيفة في اختيار سلّة، فلدينا سلّة صغيرة

وكبيرة. لقد نسجتها بيدي. يمكن استخدامها لأيّ شيء - لحمل الأشياء فيها وتخزينها وعرضها».

حملت المرأة السلال، وبدا أنّها ليست في عجلة من أمرها لتغادر.

سلالك ليست سيّئة، لكن ماذا سأفعل بها؟ ليس هناك أيّ شيء للاحتفاظ به في الوقت الحاضر.

غادرت. توجّهَ الرجل العجوز،الغاضب، إلى رينات.

قال بالألمانيّة: «لماذا أتيت بك إلى هنا؟». أضاف: «انظري إليهم بعينيك الحزينتين، قدّمي لهم السلال، ضعيها في أيديهم! أنت لا تفعلين أيّ شيء، كل ما تفعلينه هو أكل خبزي!».

ضرب رابولاس رينات بخفّةٍ على رأسها، وسرعان ما تراجعت إلى الوراء حتّى لا يتمكّن الرجل العجوز من الوصول إليها، بعينيهِ الغاضبتين والمتوحِّشتينِ. وقفا يحدّقان أحدهما في الآخر.

«خذي السّلال، نحن ذاهبون إلى المنزل».

مضوا في طريق طويل ضيِّق محاط بحقول ثلجيّة. بعيدًا، كانت الغابة تلوح في الأفق وتبتلع الطريق. كانت الشمس تغربُ وسرعانَ ما اختبأت خلف الغابة. كانت شمسًا حمراء، تغيبُ وتنبئُ بميلاد بردٍ آخر.

كان هناك شخصان يسيران على طول طريق الشتاء الفارغ، يشبهان مخلوقات غريبة،لا ينتميانِ إلى هذا العالم: رابولاس

ورينات، محمّلَين بالسلال التي لم تُبَعْ، سارا على الطريق المتجمّد وهما يتّجهان نحو الغابة.

كانت رينات متخلّفة قليلاً عن الركب.

كانا يتنفّسان بصعوبة.

تلاشى جسداهما في المسافة واختفيا بعيدًا.

كانت رينات ورابولاس يأكلان المرق، بينما المرأة العجوز المريضة مستلقيةً في الفراش.

تطعمها رينات بملعقة، وهيَ تُغنِّي أغنية لطالما غنّتها لها والدتها في الماضي.

جلبت رينات الحطب إلى المنزل. أخبرها رابولاس أنّ المرأة العجوز،أونا، قد ماتت.

- سأدعو الناس، ويمكنك أن تفعلي ما تريدين.

خرج الرجل العجوز.

تُرِكت رينات بمفردها مع جسد المرأة العجوز. لم تكن خائفة من الموت في حدّ ذاتهِ. فلقد رأت أكثر من جثّة من قبل. لكنّها كانت خائفة من الظلام. والرجل العجوز لم يعد بعدُ.

تخيّلت أنّها رأت الظلال والحيوانات البرّيّة، وأنّها سمعت أصواتًا غريبة. كانت المصاريع تدقّ على النوافذ، والرياح تصفّرُ في المدخنة وشيء يعوي بعيدًا.

تمالكت رينات شجاعتها، وزحفت نحوَ الفراش واستلقت بجانب المرأة الميّتة. دندنت لنفسها بهدوء، محاولةً أن تكون شجاعة،ثمَّ خلدت إلى النوم.

كانت رينات تحلم أنّها برفقة والدتها في يومٍ صيفيٍّ. مرَّ عليها ظلّ وتعرّفت على والدها وقالت «بابا»، لكنّها لاحظت فجأة أنّ والدها ليس له رأسٌ.

تمّ إيقاظ رينات من قبل الأشخاص الذين دخلوا المنزل؛ لم تكن تعرف ما إذا كانوا هم من دعاهم رابولاس. فوجئ الناس برؤية الفتاة نائمة بجانب المرأة الميّتة.

راقبتهم رينات، وأشعل أحدهم شمعة.

ظهر رابولاس وأخبر رينات بالخروج من المنزل. الآن وقد ماتت زوجته، لم يكن هناك من يدافع عنها.

سارت رينات بمفردها على طول الطريق الخالي.

هبطَ اللّيلُ على المنزل الذي يعيش فيه الضابط وزوجته.

حدّق هاينز في النجوم والقمر، ثمّ فتح باب المطبخ، حيث بحثَ في الظلامِ الدّامس فوجد الخبز والبطاطس وأنواعًا أخرى من الطَّعام. أرادَ أن يسرِق البعض، لكنَّهُ فكَّر بعد ذلك في الأمر بشكل أفضل.

سمع أصواتًا قادمة من الغرفة الأخرى.

ذهب إلى الرواق، حيث كان يرى باب غرفة النوم المفتوح.

رأى هاينز أليونا ملقاةً في ملاءات بيضاء، وألكسي بجانبها، أمّا الفونوغراف الذي وضعَ فوقَ الطّاولةِ والذي استوردَ من مكانٍ بعيدٍ، فقد كانت تتسرّبُ منهُ أغنيةٌ ألمانيّة قديمة شبيهةٌ بأوبرا كوميديّة أو أوبريت.

ذاب الثّلجُ فاندفعَ الماءُ مصحوبًا برقاقات الثلج المتساقطة.

كان هاينز قد تعافى، وقد جلس على مقعدٍ يستمع إلى أليونا، يشاهد المركبات العسكريّة وهي تمرُّ بجانبها والجنود يسيرون في الشارع. كانت تقول: «إنَّهُ لأمر رائع أن تنتهي الحرب». سيولد طفلي في زمن السلم. فقط تخيَّل السلام يعمُّ جميع أنحاء العالم. لن يقاتل أحد، ولن يسفك أحدٌ دماء أيّ شخص آخر. تساءلت، هل تعتقد حقًّا أن هذا سيحدث؟

قال هاينز: «أريد العودة إلى المنزل. أمّي وأخي هيلموت وأخواتي ينتظرونني. إنّهم يتضوّرون جوعا. أخشى أنّهم قد يموتون».

«لا، لن يموتوا؛ سيعمُّ السلامُ في النّهاية، كلّ شيء سيتغيّر الآن. وسنعبّئ الكثير من الطعام من أجلك. ستكون لديك حقيبة ظهر كاملة. وسيأخذك أليكسي إلى المحطّة، سأخبره أن يمنحك تصريحًا. لن يوقفك أحد بعد ذلك».

كانوا يستمعون إلى موزارت، الموسيقى التي كان يسمعها في

الليل.

كانوا يجلسون خارج المنزل الذي بُني على ارتفاعٍ عالٍ جدًّا، وكانوا يراقبون العالم في الأسفل. كان العالم ينقلب رأسًا على عقب.

أخذ ألكسي هاينز إلى المحطّة.

وضعه في القطار، وطلب من السائق التأكّد من أنّ الطفل نزل بأمان في المحطّة الصحيحة، ولكي يكون في الجانب الآمن، سلّم هاينز وثيقة، وهي عبارة عن تصريح بالسفر.

بدأ القطار يتحرّك. من خلال الإيماءات التي على وجه الضابط، كان من المستحيل معرفة ما إذا كان يشعر بالأسف على الصبيّ أم أنّه غير مبالٍ تمامًا. ربّما كان يكرهه كما فعل كلّ الألمان.

كان القطار يتنقّل عبر الريف الليتوانيّ. وكان الهواءُ ربيعيًّا.

ثفث القطار دخانًا كثيفًا وأطلقَ شرارته. أنّت الدودة المعدنيّة الضخمة وهي تبطئ من سرعتها فقفزَ الصَّبيُّ الصغير بحقيبة ظهره المصنوعة من القماش. قفز من المنصّة الجليديّة، دون انتظار توقّف القطار. استدار هاينز ونظر، لكنّه لم يستطع رؤية السائق. ربّما كان مشغولاً بتشغيل الرافعات لإيقاف القطار. كاد أن يصطدم ببعض الجنود الروس الذين جاؤوا لمقابلته، كاد ينهار، قلبه ينبض مثل طائر طار بداخله عن طريق الصدفة. لم يتوقّف عندما قال أحدهم شيئًا بلغة لا يفهمها. انحرف يمينًا واندفع نحو الظلام الذي يلوح في الأفق.

لم يتبعه أحدٌ. بقي الجنود على المنصّة المزدحمة ولم يسأله أحد عن أيّ شيء. يمكن أن يشعر هاينز بقيمةِ التَّصريح الذي منحه إيّاه أليكسي. كانت الكتابة باللغة الروسيّة، لذا لم يستطع الصبيّ قراءتها، لكنّه مع ذلك احتفظ بها بجوار قلبه، فقد ساعد ذلك في تهدئة مخاوفه.

كان أهمّ شيء عنده الآن هو الخروج من المحطّة. حينَ يصل إلى الجدول ستصبح الأمور أسهل. كان عليه أن يتأكّد من أنّه لم يسلّم

نفسه، ولم يستعجل كثيرًا أو استمرّ في إلقاء نظرة خاطفة عليه، وتجنّب أعين الناس. الناس مثل الحيوانات البرّيّة، إذا نظرت في أعينهم، فسيهاجمونك على الفور، ولن يتردّدوا. إنّهم مثل الكلاب أو الذئاب. لا يمكنك النظر في أعينهم، لأنّهم سيتحسّسونَ خوفكَ، ويرون ما هو مكتوب في أعماق عينيك: أشفق عليّ، دعني أعيش، لا تأخذ خبزي وتمنحني الجوع، اتركني وشأني، لن يصيبكَ ضررٌ منّي. وهذا أسوأ شيء، الخوف في عينيك مثل إشارة؛ لن يشفق عليك أحدٌ، لن يضيّع أحد فرصة أخذ خبزك بعيدًا عنك، والطعام الذي كان من الصعب عليك الحصول عليه، والطعام الذي تحتاج إليه ماما والعمّة لوت،ورينات ومونيكا، والأهمّ من ذلك هيلموت، الذي عانى الأمرّين وهوَ يصارعُ الجوع. في النّهاية، لكلِّ شخص طاقةٌ مختلفة، يُمكن للبعض أن يتحمَّلَ أكثر من البعض الآخر، ولكنّ الأمرَ مختلفٌ معَ هيلموت. كان هاينز يستمع، يحاول سماع كلّ شيء من حوله ويتنبّأ بأيّ خطر محتمل، لكنّه لم يستطع إسكات أنفاسهِ الثقيلة، وأزيز رئتيه وضربات قلبه؛ لقد تغلَّب على جميعِ الأصوات وعلى كلّ الأشياء من حولهِ.

فجأة قبضت عليه يدٌ. قفز هاينز إلى الوراء وحرّرَ نفسهُ، ورأى فمًا يتحدّث إليه وعينين محترقتين لشخصٍ مريضٍ، كانَ شخصًا مسلَّحًا يريدُ أخذَ شيءٍ منهُ. حقيبة ظهره؟ خبزه؟ لا، ليس خبزه، خبز أمّه، خبز هيلموت، خبز أخواته. أمسك الرجل العجوز هاينز بقبضة حديديّة، وخنقه وحاول تمزيق حقيبة ظهرهِ، لكنّ الصبي

عضَّ الرَّجل العجوز ذا الرَّائحة الكريهة ثمَّ دَفَعَهُ أرضًا وخلَّص نفسهُ من قبضتهِ. هزَّ نفسَهُ، وضَرَبَ الرَّجل، وسقط على الأرض، ثُمَّ قامَ، وركض، ونظر خلفه ورأى الرّجل المسلّح يركض وراءه. صرخ الرَّجل البائس بشدّةٍ: «أنت ابني، أنت ابني!» لقد دمَّره الجوع، وكان صوته يقطع اللّيل مثل المشرط. سمع هاينز كلمة «ابن»، قبل أن يغوص تحت قطار متوقّفٍ ويخرج بعد لحظة إلى منطقة مضاءة بشكل ساطع يحرسها الرُّوسُ. سمع صراخًا يأمرهُ بالتّوقف، لكنّه لم يتوقّف، فلاحقهُ الرَّجُلُ المسلح. خرج المجنون إلى النور وتوقّف كما لو كان متجمّدًا، وسحب أنفاسًا بيضاء كبيرة تنفجر من فمه، وعيناه ممتلئتان بالخوف. صرخ أحدهم «توقّف!» ثمّ انطلقت رصاصة نحوهُ. رصاصة تجاوزت رأس هاينز ودخلت في صدر الرجل المجنون. ظلّت تلكَ الرّصاصة التي اندفعت من سلاحٍ ناريٍّ تمتصُّ ما تبقّى من حياتهِ طيلة اللّيل، وكلمة «ابني» تحتضرُ بينَ شفتيه.

غاص هاينز في حفرة، فوجد ثقبًا في السِّياج فزحف عبره مثل قطٍّ. مزَّقت الأسلاك الشائكة خدَّهُ وهو يمسك بحقيبة ظهره. خدش الصَّبيُّ يديه وهو يبتعد عنها، ثمّ سقط في الثلج الأسود وأنصتَ. لم ينصت إلى شيءٍ غيرَ أنفاسهِ ودقّاتِ قلبه.

أخيرًا هدأ الصبيّ وأصبح قادرًا على التركيز؛أنصتَ إلى اللّيل. كان المجنون قد توقَّفَ بالطبع عن ملاحقته، ولم يعد بالإمكان سماع الجنود، ولم يطلق أحد الكلاب عليه. من مكان بعيدٍ مّا، انطلقت

رصاصة. سمع كلمات لم يستطع فهمها. ربّما لم تكن حتّى كلمات، فقط رياح قادمة من السهوب البعيدة، تعوي مثل حيوان برّيّ.

لمس هاينز وجهه وشعر بدماء على وجههِ. كانت يداه لاذعتين. جرّ حقيبة الظهر بالقرب منه وسقط على جانبها، وشعر بالرطوبةِ، كان الثلج قديمًا ومبتلًّا. بدأ الجليدُ بالذّوبان. عانق حقيبة الظهر، واسترقَ السّمعَ مرّة أخرى ثمَّ قرَّر الاستمرار. نهض ببطء. يجب ألّا يسلّمَ نفسه، يجب ألّا ينتهي به الأمر تحت تلك الأضواء مرّة أخرى، ربّما لا يزال الجنود الذين يحرسون محطّة السكّة الحديد يبحثون عنه.

مشى. كان من السَّهلِ عليه أن يجد طريقه في الظلام، على الرغم من صعوبة معرفة مكان وجوده في مثلِ هذه الأماكن. فبدلًا من المباني، لم يكن هناك غيرُ أكوامٍ من الطُّوبِ والجصِّ، والثقوب التي أحدثتها قنابل أسقطت من الجوّ. لكنّها لم تكن المرّة الأولى التي يكون فيها هنا، ويمكنه أن يشعر بالمكان الذي يقعُ فيهِ منزلهُ. كان يائسًا من العودة إلى المنزل. كان يعرف أنّهم ينتظرونه بشغف، ويعرف كيف تكون الحال عندما يتضوَّرون جوعًا.

وأخيرًا وصل إلى البستان القديم أو ما بَقِيَ منهُ. توقّفَ واستمع في انتباهٍ: سمعَ كلاب العدوّ الألزاسيّة، المدَّربةِ على تمزيق الأجسادِ البشريّة. كانت حينها تهاجمُ شخصًا مّا، لكن لا داعي إلى القلق بشأن هويّة ضحيّة تلك الحيوانات التي تأكل البشر مادامت بعيدةً جدًّا. في فناء منزلهم، كان كلّ شيء هادئًا.

كان الثلج متسّخًا، ممّا جعل كلّ شيء أكثر قتامة. كانت السماء فارغة، أو ربّما لم تكن ثمّةَ سماءٌ أصلًا. لم يستطع رؤية أيّ شيء سوى اللَّيل.

مشى هاينز في الفناء. جعل الخوف قلبه ينهار كما لو كان يسبحُ في ماءٍ باردٍ. سرت رعشة في جسده. وجدَ باب السَّقيفة الخشبيّة مواربًا. هل كان بإمكانه حقًّا ترك والدته وأخيه وأخَواته هنا؟ نعم، كان هذا منزلهم. دفع هاينز الباب بهدوء ودخل في الظلام الحالك.

الصَّمت.

كان من الداخل باردًا كما في الخارج. لم يشعل أحد الموقد لفترة طويلة، ولم يشرب الماء المغلّى ولم يشرب الشاي. لم يصدّق أنّه لم يكن هناك أحد هنا، فقط الليل والخطوط العريضة الصامتة للأشياء التي تُركت وراءه.

«ماما ... ماما!» صرخ الولد بصوت أجشّ، كما لو كان في انتظارِ إجابةٍ من والدتهِ، كما لو كانت حذوَهُ في هذا المكان الذي غزاه البرد تمامًا، ربّما هي مختبئة من ابنها، ربّما هي تلعبُ معهُ الغمّيضة، وعلى استعداد للخروج مع البقيّة من مخابئهم والترحيب به في المنزل بصيحات الفرح،كي يعانقوا هاينز، ويضغطوه على صدورهم، ويقبّلون وجهه المخدوش المُؤلم، ربّما يُشعلون النار والشُّموعَ ويُناقشون مغامراتهِ في مرحٍ،ربّما يتذوَّقون الخبزَ والسّمن الذي أحضره من ليتوانيا بسعادة.

قال للظلام: «ماما»، لكنّ الظلام ليسَ والدتهُ، هو لا شيء، هوَ مجرّدُ ظلامٍ فقط. في أحسن الأحوال لم يكن سوى ملجإٍ ومأوًى يحميه من الجنود المخمورين ويسمح له بإغلاق عينيه والوقوع في حلم يمكن أن يقابل فيه والدته وكلّ شخص آخر يتوق إلى رؤيتهِ، ولكن ربّما لن يراهم مرَّة أخرى وإلى الأبد..

تقدّم هاينز بحذرٍ إلى الأمام ومدَّ يدَهُ للمس مدخنة الموقد الحديديّ. كان الجوُّ باردًا، مثل أيّ شيء آخر من حوله.

سمع الصمت كأنّه يأمل في إجابة لكن لم يأتِ شيء.

لم تعد عائلته هنا.

لم يكن يعرف ما حدث لهم.

لم يكن يعرف أين يبحث عنهم.

لم يكن يعرف ماذا يفعل.

طوال فترة وجوده في ليتوانيا، بينما كان مريضًا ويعيش مع الضابط الروسيّ وزوجته التي كانت تترجم من الألمانيّة، طوال ذلك الوقت كان يتوق إلى شيء واحد فقط: العودة إلى المنزل. وبالخصوص عندما أعطته أولينا بعض الخبز والسمن، عندما كانت تملأ حقيبة الظهر القماشيّة بالطعام الذي هو في أمسِّ الحاجة إليه.

اعتقدَ أنّه سيعود وسيكون كلّ شيء على ما يرام، وسيختفي البرد والمجاعة، وسيتدبّرون الأمر بطريقة مّا، وسيذهبون جميعًا إلى

ليتوانيا، أو ربّما سيعود فقط مع أخواته وشقيقه. في النّهايةِ، عرف هاينز الآن الطرق بشكل أفضل، يمكنه بالفعل التحدّث قليلًا من الليتوانيّة. لن نموت، ليس أنت،ماما، ولا أخواتي، ولا العمّة لوت، ولا هيلموت، الذي يعاني أكثر من غيره عندما يتضوّر جوعًا. هيلموت،هيلموت، أخي الصغير، لن تعاني من الجوع بعد الآن، سأعتني بك، وسأخرجك من فكّي الموت الجليديّ، ولن ترانا كلاب الجحيم بأعينها المحترقة نعاني.

لكن ها هو يجلسُ في كوخ فارغ، يشعر بالبرد وهوَ يتسرّبُ إلى عضلاته. اجتاحه الإرهاق واليأس والخوف.

كان عليه أن يفعل شيئًا. ألقى بحقيبة ظهره على الأرض ووجد حزمة من أعواد الثقاب كانت ملفوفة بورق شمع وخرق. أشعل النار والخوفُ يرتسمُ في عينيهِ، الخوفُ من أن يرى أخواته القتيلات والابتسامات على وجوههنّ، الخوفُ من أن يرى والدته وقد تقطّع حلقها...

اشتعل الكبريت، وتغلغل الضَّوءُ في الظَّلام الكثيف، ولم يكن هناك أحد. كان المكان فارغا. لقد غادروا. لقد طُردوا. أُخذوا بعيدًا. لقد هربوا. كانوا في مكان آخر.

شكرًا للربّ، لم يكونوا في هذا الصمت. لم يكن سوى صمت كوخٍ فارغ وليس قبرًا.

أشعل هاينز النار في الموقد الحديديّ. ما داموا تركوهُ خلفهم

فذلك يعني أنّهم نُقلوا بعيدًا أو طُردوا، لأنَّهم لم يتركوا مثل هذا الشيء الثمين وراءهم. كان من الخطإ ترك موقد يحميك من البرد. لكن ربّما كانوا ضعفاء جدًّا، ربّما لم يكونوا قادرين على حمل موقد حديديّ ثقيل، وكانوا في حاجة إلى مزلقة؛ ربّما فقدوا كلّ الأمل في رؤيته مرَّةً أخرى وفي عودتهِ، وقرّروا الانتقال إلى مكان آخر. ربّما تلقّوا عرضًا بمكان أفضل للعيش.

شاهد الفتى طقطقة النار. أخذ رغيف خبز من حقيبته. لقد تردّد قليلًا ثمَّ قطعَ قطعة صغيرة من السمكة، لم يستطع أن يأكل الكثير منها، وكان عليه أن يترك بعضها لعائلته. وإذا عادوا، ربّما ليس الآن، ليس الليلة، ولكن ربّما غدًا. كان يعلم أنّهم في مكان مّا قريبٍ، وربَّما يقيمون مع الجيران. في النّهاية، كانوا ينتظرون الطعام الذي سيحضره إلى المنزل، كانوا ينتظرونهُ؛ كيف يأكل الطعام دون أن يترك البعض لأخواته وهيلموت؟ ووالدته.

نما اللَّهبُ. استهلكت النّارُ قطعًا من الخشب وأرجل كرسيٍّ قديم، كانت ترقص بمرح، كما لو أنّها في عالم آخر خالٍ من الهموم حيث كان الطَّعامُ وفير. مكان بعيد، قصر ملك مليء بالفضّة والحرير اللّامعَين، حيث سيكون من الرائع رؤية أخواته، في حالة من الاسترخاء والسعادة مرّة أخرى.

كانت هناك ضوضاء.

ثمّ ضوضاء أخرى.

ثمّ أخرى.

استمع هاينز وهو مستعدّ لإطفاء الحريق. أغلق باب الموقد لإخفاء الضوء.

دوّى الضجيج مرارًا وتكرارًا، بدا وكأنّها مسامير تُدفَع إلى الأرض المتجمّدة.

كان الجليد على السطح يذوب ويقطر.

ابتسم هاينز: أشعل نارًا، وفي العالم الخارجيّ بدأ الثلج في الذوبان.

في تلكَ البلاد الكئيبة، أحاطت الغابة التي لا نهاية لها، بالمزارع والقرى مثل جدارٍ أسود. لم تعد الذئاب حذرة من البشر، بل كانت تتغذّى على جثثهم المجمَّدة.

كانت جوانب الطرق مليئة بهم.

ربّما كان داء الكلب هذا هو سبب موت الكثير من الذئاب. وربّما لا فالكلاب السّائبةُ كانت هي أيضًا طعامًا للذئاب.

كان الصوت طويلًا ومروِّعًا. لقد أعاد إيقاظ مخاوفك القديمة، وجعل جلدك يزحف وأذنيك تتأرجحان. اتّسعت عينا رينات من الرعب. لقد استمعت إلى هذا الصوت البعيد: جوقة الموت الجامحة.

قال الصبيّ المسمّى رودولف، الذي كان ينتفُ ريش دجاجة عجوز مرقّطة: «لا تخافي، إنَّهُ مجرّد ذئب».

انعكست ألسنة اللهب في عينَي رينات. نظرت الفتاة إلى الغابة التي تحيط بهم في اللّيل القريب. استرقت السّمع. كانت ألسنة اللهب، المهدّئة والمريحة، تلعق قطعة معدنيّة مكسورة من مركبة

عسكريّة كانوا يستخدمونها وعاءً لإذابة الثلج.

وصلت رائحة التبغ الحادّة إلى فتحتي أنف رينات. كانت ريتّا تدخّن سيجارة حصلت عليها من بعض الجنود أو السكان المحلّيّين. ريتّا تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا تقريبًا، شعرها متشابكٌ وعيناها حزينتان وغاضبتان. لم تَكد تقول كلمة واحدة. كانت رينات خائفة منها. وكان رودولف مختلفًا تمامًا ويتحدّثُ ببهجةٍ. الغريب أنّ الحرب لم تجعله حزينًا على الإطلاق. كانت ريتّا تسحب السيجارة بهدوء دون أن تسعل، مثل مدخِّنةٍ عجوزٍ وذات خبرة. يمكنك أن ترى التجربة محفورة في وجهها، لم تكن لديها أوهام، ولم تكن خائفة من الموت، ولم تكن لديها توقّعات كبيرة.

عوى الذئب مرّة أخرى. ربّما كان يشمّ رائحة دم الدجاجة، التي كان رودولف يقطع بطنها بسكّين حادٍّ. شاهدته رينات وهو يفعلُ ذلكَ، فكّرت في داخلها: هل سيقدّمون لي بعضًا من تلك الدجاجة أم لا؟ لم يكن للفتاة وقت للتعرّف عليهم بشكل صحيح حتّى الآن. كانت تعرف فقط أسماءهم، رودولف وريتا وسبارو. هكذا قدم الطفل الهزيل المتلعثم نفسه. في البداية، لم تكن رينات قادرة على تحديد ما إذا كان صبيًّا أم فتاةً. لكنّه كان صبيًّا، وقد أطلقوا عليه اسم سبارو لأنّه كان صغيرًا جدًّا.

أخذ رودولف كلّ ما هو صالح للأكل من الطيور؛القلب، والكبد، وجزءًا مّا من الأطراف الدّامية ثمّ أمعاء غريبة المظهر تذكّرها بحفنة من العنب، وقطعًا صفراء مستديرة بأحجام مختلفة

متماسكة معًا في عنقود.

سألت رينات: «ما هذا؟ ما تلك الكرات الصفراء؟».

- إنّها بيض.

- بيض؟!

- إنّه البيض الذي كانت هذه الدجاجة ستبيضهُ. إنّها لذيذة، لم تكد تبدأ في التكوّن داخل بطنها.

قالت ريتّا فجأة: «مثل الأطفال في بطن المرأة». استدارت رينات متفاجئة كي تنظر إلى هذه الفتاة الكئيبة.

سألتها: «لماذا؟».

- لا تسأليها أيّ شيء، لا تسأليها أيّ شيء، لا تسأليها أيّ شيء. صرخ سبارو فجأة بشكل هستيريّ تقريبًا.

لم تفهم رينات وألقت نظرة خاطفة على رودولف، الذي كان يبتسم بسخرية. ابتسمَ ورمى قطع الدجاج في القدر. بقيت صامتة. كلّ ما يمكن أن تفكّر فيه هو ما إذا كانوا سيعطونها قطعة من الدجاجة أم لا.

قال رودولف: «إنّها خائفة».

قالت ريتّا: «يمكنك القول إنّ الطفل في بطن المرأة هو أيضًا في بيضة».

«لا تسأليها أيّ شيء، لا تسأليها!» صرخ سبارو مرّة أخرى،

وغطّى أذنيه، ورمى نفسه في أعمق ركن من الكوخ الذي بنوه من أغصان التنّوب.

ضحك رودولف. أعطته ريتّا عقب السيجارة. استنشق الدخان اللّاذع، سعل، لكنّه استمرّ في التدخين.

«وجدنا امرأة مقتولة في مزرعة. كانت عارية وقطّعوا بطنها، وسقط طفل صغير منه، وكان في كيس مثل البيضة، كان الكيس منقسمًا. أفترض أنّ الطفل حاول الخروج لكنّه تجمّد. كانا كلاهما مثل قطع الجليد، المرأة والطفل».

لم تقل ريتّا شيئًا.

قال رودولف: «أعتقد أنّ هذا هو سبب جنون سبارو. وجدناه في ذلك المنزل، وعندما حاولنا أن نسأله عن أيّ شيء عنه، بدأ فقط في الصراخ. ربّما كانت المرأة والدته. يمكنك محاولة سؤاله، لكنّه لن يجيب. لا يستطيع سماع أيّ شيء الآن، إنّه يرتجف فقط وترتعدُ أسنانه. ريتّا تضايقه عن قصد. لكنّي أعتقد أنّ ريتّا تخشى أن يكون لديها طفل صغير في بطنها. بعد كلّ شيء، هي تزور الجنود.

قالت ريتّا: «أغلق فمك، واضربه على رأسه».

كانت الساحة هادئة.

لقد حلّ الصّباح.

مبكّرًا جدّا في الصباح. كان الفجر يتلاشى.

فتح هاينز الباب وخرج إلى الضَّباب الصَّباحيّ. كانت المياه تتساقط من الأسطح كما لو كانت نبعًا، وكان الربيع في الواقع يأتي من مكان بعيد، يجلب الأمل معه. تقدَّمَ هاينز ببطء، ولا يعرف ماذا يفعل أو إلى أين يذهب. شعر فجأة بوِحدةٍ أشدّ من اللَّيلة الماضية؛ شعر وكأنّ ثعبانًا يضغط على قلبه، يلتفّ حوله ويعصره ويسحقه. أراد أن يصرخ، أن يبكي، لكنّ عينيه كانتا جافّتين، لم يكن هناك سوى رطوبة من الضباب الأبديّ على خدّيه، ضباب بدا أشبه بالرذاذ.

كان هاينز يسير في ساحة طفولته. لقد تمّ تقليبها. سار عبر الثلج المتّسخ، متجاوزًا العربة المحطّمة، مبتعدًا عن البئر. من خلال الضباب، تمّ التركيز على منزلهم القديم. بدا غريبًا، ونوافذه مثل عين رهيبة عمياء. خلف تلك النوافذ، كان الغرباء نائمين. هل

يمكن أن يكون هذا هو المكان حيثُ عاقبه والده ودافعت عنه والدته؟ حيثُ كان يمازح جدَّهُ، لأنَّهُ لم يستطع تحمّل رائحة التبغ، ولعب الورق، وشرب الخمر؟ هل يمكن أن يكون هناك حقًّا حيثُ رسم إيكاروس على ورقة ضخمة من أوراق الرّسم التي تعود لرينات؟ هل يمكن أن يكون وراء تَيْنِك العينين السوداوَين الميّتتين شجرة عيد الميلاد المزيّنةِ بالتفّاح والحلويّات، والملائكة التي صنعتها والدته وأخواته من الورق؟ هل يمكن أن يكون هنا بالفعل، هو وبريجيت وأحدهما يضايق الآخر طوال الوقت، ويتطلّعان بشغف إلى زيارات العمّة لوت، والهدايا التي ستحضرها، وأغانيها. ألا يسمع لوت وهي تغنّي، مع والدته التي ترافقها على البيانو، أم أنّ والده يعزف على الأرغن؟ عاقبني يا أبي لأنّني لا أعرف، لأنّني لا أقدّر الأشياء، لأنّني لا أبتهج في كلّ لحظة من تلك الحياة، في أصغر الأشياء، التي تشكّل السعادة - عاقبني، دعني فقط أستيقظ من هذا الحلم، فقط دعني أستيقظ من هذا الشتاء الرطب والميّت، اغسل عيني بماء الحياة، دعني أرى الأشياء بوضوح، دع كلّ شيء يعود إلى الحياة اليوميّة في الأزمنة السابقة، دع أحلام شياطين الموت تتبدّد... يا ربّ، أين يجب أن أذهب الآن، ماذا أفعل؟

لم يأكل هاينز منذ الليلة الماضية. كان يحمل في حقيبته القماشيّة كلّ ما أعطته إلوينا إيّاه في رحلة العودة إلى الوطن: الخبز والسمن والأطعمة المعلّبة من أمريكا. لكنّه لم يكن قادرًا على تناول أكثر من

القليل من الخبز في اللَّيلةِ الماضية، ولم يستطع إحضار أيّ شيء الآن. كيف يأكل هذا الطعام الذي كان مخصصًا لأمّه وأخواته وهيلموت؟ ما الفائدة من الأكل الآن، وهو بمفرده، في حين لم يكن هناك من يناديه بصوت أمّه ويعانقه؟ لم تكن شقيقاته هنا ليضحك على نُكَتِهنَّ. إذن ما الفائدة من عدم وجود أيّ منهم، ولا أحد منهم عزيز عليه، وكان الأمل في لقائهم يتلاشى مع كلّ لحظة تمرّ؟ كان الأمل قد تضاءل طوال الليل، والآن فقط شرارة ضعيفة لا تكاد تحترق في أعماق قلبه.

سار هاينز متجاوزًا أشجار الفاكهة التي زرعها والده بيديه. ربّما تجمّد البرقوق هذا الشتاء، كان من الصعب جدًّا حمل دلاء الماء. هنا كانت شجرة تفّاح رينات، حيثُ تعودّت أمّهُ أن تلتقط الصّور، حيثُ يحرّك النّسيم ثوبها ذا الألوان الزاهية وهي سعيدة وتبتسم في صورة مصفرّة الآن. في ذلك الصيف، الذي كان سهلًا جدًّا ويصعب تذكّره، عاش في الصورة. لم يعد يمتلكها، ربّما فقدت منذ فترة طويلة ودُفنت في مّكان ما تحت أنقاض الحرب.

سار هاينز ببطء، كما لو كان على قاع البحر الصامت. وفجأة ظهرت صورة ظلّيّة للموت تلوحُ من الضباب، ضباب الحرب المتحجّر. لا، ليست صورة ظلّيّة، بل وجهًا بقرون ضخمة ودمويّة، ورغوة على شفتيه. عيناه بيضاوان ومنتفختان. كان وجهًا ميّتًا، لكنّهُ يحدّقُ فيهِ مباشرة. حدّق وسألهُ: ماذا تفعل في مملكتي، ماذا تفعل في هذا الضباب؟ كان هذا بستانك، حديقتك، بيتك، لكن

الآن هذا هو الجحيم الذي أتحكّم فيه، أرض الموتى، مملكتي.

وقف هاينز متجمّدًا على الفور، وواجه بشكل غير متوقّع نظرة على وجه الطوطم. ألقى نظرة خاطفة عليه ولم يستطع أن يفهم لماذا كان من الضروريّ وضع رأس بقرة على فرع شجرة التفّاح المكسور - كان ثقيلًا، ذلك الرأس، وكان لحمًا، فقط اللحم والعظام. كان مثل أيّ بقرة، تمامًا مثل رأس بقرة. ضحك هاينز على نفسه، مجيبًا على توبيخ الطوطم بازدراء. لم يكن خائفًا من حفلة تنكّريّة سخيفة للموت، من هذا القناع.

خفض عينيه ووقف صامتًا بينما استقرّ الضباب على رأسه وكتفيه. أغمض عينيه، وشعر بالتّعب، وعدم جدوى كلّ ذلك واليأس، وضغط عليه في الثلج الموحل الذائب.

نزع قبّعته وبدأ في البكاء. كان يعتقد أنّه لم تبق لديه أيّ دموع، لكنّها اشتعلت كالنار، مثل شفرة تخرج من هاوية. بكى كما لو أنّه نهَض للتوّ.

لم تكن دموعًا بل كبريتًا.

لم تكن هناك ريح، لا صوت، فقط بكاء ولد صغير.

لكن هل كان هذا هو الصوت الوحيد حقًّا؟

بدأ هاينز في الاستماع، وهو يجهد لسماعه، كانت هناك ضوضاء غريبة لم تختفِ، بل كانت ترتفع بصوت أعلى، وتقترب، كما لو كانت دودة ضخمة تزحف بالطّول، أو أنّ الماء يشقّ طريقه عبر

الرمال.

استدار الصبيّ ورأى ظلًّا كبيرًا مخيفًا يرتفع، يقترب أكثر، ويتحرّك على إيقاعٍ واحدٍ. كان يخرج من الضباب، من الضباب، من عالم لا توجد فيه خطوط ساحليّة ولا سماء.

أخيرًا، كان قادرًا على رسم الأشكال البشريّة. مجموعة كبيرة من الناس بأيديهم على جوانبهم، وأرجلهم تتدحرج على طول الطريق الذي يمرّ عبر الفناء، وتتحرّك خطوة بخطوة، وتدفع نفسها إلى الأمام من حافّة الضباب إلى حافّة أخرى. إلى أين؟ من يدرى... بدوا وكأنهم ماتوا منذ زمن طويل. كان هاينز خائفًا من أنّ قناع الموت كان أمرا واقعا، كما لو أنه مات منذ فترة طويلة، وبدت هذه الهياكل العظمية رفاته.

جاء شخص حيّ ينفذ من الطابور بقيادة عدّة جنود روس مدجّجين بالسلاح (لم يكونوا على وشك السماح لأيّ شخص بالفرار). نعم، كان شخصًا حيًّا، شخصًا حيًّا يركض نحوه بفرح، ولم يلتفت إلى الصراخ الروسيّ في وجهه. كان الشخص ينادي باسمه: «هاينز، هاينز، أنا، ألبرت، كنت أبحث عنك، كنت أعلم أنّنا سنمرّ بمنزلك!». تعانقا لحظةً وجيزةً، طبطب كلّ منهما على ظهر الآخر. «لا يمكنني العثور على عائلتي، ولم تعد عائلتك هنا، لعلّهم طُرِدوا. يجب أن أذهب، لكن قد نجدهم مرّة أخرى. يجب أن نجدهم مرّة أخرى. يقولون إنّنا سننتقل إلى ألمانيا، سيرسلوننا إلى ألمانيا. سنجدهم هناك. بعد كلّ شيء، لا يمكن أن نضيع في

العالم إلى الأبد، لا يمكننا ذلك، وحتّى إذا تهنا سيحاول بعضنا العثور على بعضٍ، يجب أن نحاول. لنذهب الآن. لقد رحل شعبنا منذ زمن بعيد، وماذا يمكننا أن نفعل بمفردنا؟ لن يسمحوا لنا بالبقاء هنا بمفردنا».

وفجأة عاد الواقع وسحقت الحصى بصوت عالٍ تحت أقدام الألمان وهم يتقدّمون إلى الأمام. كان هناك شيوخ ونساء وأطفال، بعضهم يحمل حزمة، والبعض الآخر قطعة أثاث، والبعض الآخر لا شيء على الإطلاق. بدا ألبرت هزيلا. كانت هناك دوائر سوداء تحت عينيه، لكنّها كانت حيّة ومشرقة. كان يقول: «يا لها من فرحة، لقد وجدتك! لم أصدّق ذلك البتّة، لكنّني حاولت النظر إلى منزلك من مسافة بعيدة بالصدفة، وفجأة رأيت شخصًا يقف بجانب شجرة التفّاح، وفكّرت: «يمكن أن يكون هاينز». هاينز، كان بإمكاني أن أرى أنّه أنت حقًّا، يا إلهي، أنا سعيد جدًّا لأنّني وجدتك!».

صاح أحد الجنود الروس بشيء مّا، وكان الطّابور قد كاد يمرّ، واضطرّوا إلى المضي قدمًا.

انضمّ الأولاد إلى الصفّ واختفوا في الضباب. نظر هاينز إلى الوراء مرّات، فاختفى كلّ شيءٍ خلفهُ.

اقتربت شاحنة مغطّاة تحمل الإمدادات من متجر في ساحة بلدة صغيرة.

ثلاثة أولاد ورينات كانوا ينتظرون اللحظة المناسبة.

وبينما كانت الشاحنة تمرّ من المتجر، أطلق السائق بوقه. استدار إلى الفناء الخلفيّ وتوقّف عند مدخل التسليم.

جاءت ستاسو،العاملة في المتجر، لمقابلة السائق. وقّعت ستاسو على مذكّرة التسليم، ثمّ بدأت هي والسائق في تحميل صواني الخبز. كانت الأرغفة السوداء كلّها بالشكل نفسه، ولم تكن تبدو فاتحة للشهيّة.

قالت ستاسو بحسرةٍ: «الخبز دائمًا نصف مخبوز».

اختفت هي والسائق في المخزن. كان الأطفال يشاهدون كلّ شيء من الزاوية.

صاح رودولف: «لنذهب... الآن!».

تردّدت رينات قليلًا، لكنّها ركضت بعد ذلك إلى السيّارة مع الآخرين. ذهبوا إلى حيث كان الخبز، وأخذ كلّ منهم ما في وسعه.

ظهر السائق من الدكّان وهو يصرخ عليهم ونزع حزامه وهو يركض.

- سأريكم أيّها اللصوص الملعونون! صرخ بغضب.

ركض الأطفال في اتّجاهات مختلفة. كانت رينات آخر من هرب. لم تكن تعرف ماذا تفعل. كانت تمسك لفافة مضغوطة على صدرها. انزلقت قدمها وسقطت على وجهها.

أمسك السائق بالفتاة من مؤخّرة رقبتها كما لو كانت كلبة، وهزّها بقوّة وبدأ يجلدها بالحزام. صرخت رينات في خوفٍ وخجلٍ.

كان وجه السائق أحمر ساطعًا من الغضب. ظلّ يضربها ويضربها، غير مكترث بمكان سقوط الضربات.

أتى مساعد المتجر من المخزن وأمسك بذراع السائق.

- توقّف، توقّف، من أجل الرّب!

- إنّها لصّة، لصّة ملعونة!

- إنّها مجرّدُ طفلة، طفلة! اتركها، لا تضربها، اتركها تذهب!

- إنّهم منتشرونَ في كلّ مكان الآن، مثل القمل!

كانت رينات مستلقية على ظهرها الآن. كان الخبز قد سقطَ من يديها وعيناها مليئتان بالغضب والخوف وهي تنظر إلى المرأة التي تتحدّث بلغة لم تفهمها.

زحفت بشكل مؤلم إلى الأمام للوصول إلى رغيفٍ من الخبز. أمسكت به، عاقدة العزم على عدم السماح لأيّ شخص بأخذه منها.

«إنّهم بحاجة إلى الضرب وهم مازالوا صغارًا، أو سيكون قد فات الأوان على تربيتهم عندما يكبرون... ألا يمكنك أن ترى كيف تنظر إلينا؟». سألت ستاسو رينات: «من أين أنت؟ من هي والدتك لا داعي إلى الخوف منّي. لماذا تسرقين؟ ليس من الصواب أن تسرقي، ليس من الصواب أن تسرقي».

التقط السائق صينيّة أخرى.

«إنّها ألمانية، واحدة من هؤلاء الذئاب، المنطقة المحيطة بالغابة مليئة بهم. إنّهم مثل القمل، يسرقون أيّ شيء، إنّهم يتسوّلون دائمًا».

سألتها ستاسو باللغة الألمانيّة: «هل أنت ألمانيّة؟ هل تفهمينني؟».

أومأت رينات.

«لا تخافي منّي، لا تهربي. لكن يجب ألّا تسرقي. هل أنت جائعة؟» أومأت رينات برأسها.

نظر إليهما السائق وضحك وكأنّه يقول: ماذا يمكنك أن تفعلي بهؤلاء النساء؟ بصق، وركب الشاحنة وصرخ: «مذكّرة التسليم موجودة على الصندوق!».

وببعض الصعوبة، خرجت الشاحنة من الفناء المليء بالحفر.

«أين والدتك؟» سألت ستاسو.

«لقد فقدتها ...».

نظرت المرأة إلى الفتاة الصغيرة الخائفة التي تعرّضت للضرب وشعرت بوخز في صدرها.

«يا مسكينة».

نظرت رينات إلى ستاسو. لعلّها بدأت تثق في هذه الشابّة.

ابتسمت ستاسو ابتسامة مشجّعة.

تبيع ستاسو الخبز وغيره من الموادّ الغذائيّة الأساسيّة. كانت النساء اللواتي يأتين إليها يشكين دائمًا من الشتاء، ومن الجوع، ومن جودة الخبز، ومن الأوقات السيّئة التي كُنَّ يعشن فيها.

كانت رينات جالسة في زاوية المكتب. وكان الباب الذي يؤدّي إلى المتجر مواربًا، كان بإمكان رينات سماعهم يتحدّثون بلغة لم تفهمها، ورأت ستاسو تعمل بجدّ خلف المنضدة. ظلّت تنظر إلى رينات وتبتسم بشكل مطمئن.

فقدت رينات قطعا كثيرة من الخبز الذي كان لديها. أخذت عضّة أخرى. كافحت لإنزالها، لكنّها دفعت القطعة عميقًا في فمها بإصبعها وابتلعتها.

زحفت قملة على وجه الفتاة.

قسّم منزل ستاسو إلى جزأين. عاشت ستاسو وزوجها وأختها في جزء واحد، بينما كان الآخر يؤوي الكثير من أعضاء الوحدات شبه العسكريّة التي تسيطر عليها قوّات المفوّضية الشعبيّة للشؤون الدّاخليّة والمكلّفة بمطاردة الثوّار الليتوانيّين المناهضين للسوفييت، والذين صدرَ منهم كمٌّ لا نهاية له من الغناء والشتائم في حالة سكرٍ.

جاء رجل روسيّ صغير غير مثير للإعجاب يُدعى ميكيتا يتمايلُ في الفناء. لقد سجّل ليكون واحدًا من «المبيدين»، كما كان يُطلق عليهم. ذهب إلى نافذة كان يخرج منها صوت ضحك وأصوات مخمورة وطرقَها. جلس في وضع القرفصاء حتّى لا يتمكّن أحدٌ من رؤيته وضحكَ. صمت الرجال في الداخل. نظر أحدهم بحذر عبر النافذة، فأصبحوا الآن وجهًا لوجه. اختفى الرجل، وضحك ميكيتا مرّة أخرى.

خرج رجلٌ مخمور من المنزل ساخطًا.

«اللعنة عليكَ ياميكيتا، ستلقى جزاءكَ يومًا مّا! سأطلق النار عليك، انتظر مصيرك إذا لم تتوقّف عن هذا الصّنيع!».

- ما الذي يخيفك؟ أنت خائف من ميكيتا. الجميع يخافون من ميكيتا الآن. استمرّ في الشعور بالخوف، اللعنة عليك.

- كأنّني سأخاف منك بالفعل. هل أحضرت لنا بعضًا من هذه الكحول المصنوعة منزليًّا؟

فتحَ عاملُ المبيداتِ ساقيه على نطاق واسع، فتعثّر قليلًا، ثمّ تبوَّل على جدار المنزل.

كانت رينات جالسة في برميل من الماء الدافئ، محاطة بفقاعات الصابون والبخار المتصاعد.

كان بإمكانها سماع صيحات ميكيتا والسكارى الآخرين وهم يتشاجرون في الشرفة.

حمَّمت ستاسُّو الفتاة، وفركت شعرها جيِّدًا بالصّابون.

نظرت إلزي من النافذة إلى الفناء، حيث كان رجل مخمور يحمل بندقيّة ويتمايلُ. كانت إلزي أخت ستاسّو الكبرى، وهي فتاةٌ عانس وتبدو غاضبة على الدّوام وغير راضية. لم تبتسم البتّةَ، كما لو كانت تحاول إخفاء أسنانها المتعفّنة. لكنّها لم تستطع التوقّف عن الكلام.

كانت ستاسّو خائفة من صرخات المُبيدين، لكنَّها حاولت عدم إظهارِ ذلكَ الخوف. واصلت إلزي الكلام.

«لماذا أحضرت تلك الفتاة الألمانيّة إلى المنزل؟ ألا تعلمينَ أنَّهُ يجب أن يكونوا مسجّلين في المجلس المحلّيّ؟ هؤلاء الأطفال الألمان يأتون إلى هنا يتسوَّلون ويسرقون وينشرون الأمراض، إنَّهم نوعٌ من الموت، ومع وجود هؤلاء الروس في منزلنا، هؤلاء المبيدين الذين

يتجوّلون دائمًا في حالة سُكر، هل تريدينَ ترحيلنا، وإرسالنا إلى سيبيريا؟ فيمَ تحتاجينَ إلى هذه الفتاة؟ فيمَ تحتاجين إليها الآن بعد أن تزوَّجتِ وأصبحَ لديكِ رجل وستنجبين أطفالًا في قادم الأيّام؟ هل أنت مستعدّة للذهاب إلى سيبيريا بسببها؟ هل تريدين أن أُرحَّل إلى سيبيريا بسببك، بسبب طيبتكِ، بسبب هذه الفتاة التي لا يمكنك التحدّث إليها إلّا بالهمسات، حتّى لا يسمعك أحد تتحدّثين الألمانيّة؟».

لفَّت ستاسّو رينات بمنشفة كبيرة، وأخذتها من البرميل وبدأت في تجفيفها. في ليتوانيا، قالت للفتاة: «إنّه أمر جيّد أيضًا أنّك لا تستطيعين فهمَ أيّ شيء تتمتمُ بهِ أختي ذات المزاج السيّئ».

أخذت ستاسّو رينات إلى غرفة المعيشة، حيث جُهِّز السرير.

ضحكت: «سأقدم لك ثوب نوم. إنّه ملكي، لذا سيكون كبيرًا جدًّا عليكِ. ولكن غدًا سأخيط فستانًا جديدًا جميلًا. لكن الآن أنت في حاجة إلى النوم».

أخذت ستاسّو ثوب النوم من خزانة الملابس. وقفت رينات على كرسيّ، وشدّته على رأسها، ثمّ وضعتهُ في السرير المكوّن من الكتّان الأبيض اللّينِ. جلست على حافّة السرير وربّتت على رأس الفتاة.

مدّت رينات ذراعيها نحو ستاسّو ثمَّ استلقت بجانب الطّفلة. عانقتها رينات فجأة بكلّ قوّتها.

«كوني أمًّا لي، كوني أمًّا لي!».

قالت ستاسّو بلطف وهيَ تقبّلُ رأس الطّفلة: «سأكون كذلك، أعدك».

أُغلِقت عينَا رينات.

كان أنتاناس زوج ستاسّو، يقطع الخشب. تردّد صدى الصوت واخترقَ سكونَ الصباح الصافي. كان الدخان يتصاعد من المدخنة مباشرة إلى السماء.

استيقظت رينات على ضوء الصباح الباكر المتدفّق عبر النافذة. كانت تسمع صوت فأس أنتاناس.

حدّقت في السقف بعضَ الوقت، كما لو أنّها لا تصدّق عينيها، ثمّ سرعان ما تخلَّصت من البطّانيّة، ونهضت وسارت حافية القدمين عبر الأرضيّة اللّامعة النظيفة.

سمعت ضجيجًا عبر باب المطبخ الموارب. تحرَّكت نحوه، ورأت أنّ ستاسّو كانت تخيط فستانًا. بدت سعيدة. أرادت رينات أن تحفظ وجه ستاسّو في هذه اللحظة وتخلّده في ذاكرتها. ربّما يمكنها بهذه الطريقة أن تفهم الناس بشكل أفضل.

كانت الساعة على الحائط تدقّ بصوت عالٍ. تراجعت رينات من الباب ونظرت حولها في الغرفة التي كانت نائمة فيها. مضت نحوَ السَّاعة وتفحصّت بندولها، ثمّ اللوحة الجانبيّة القديمة، وراقصة الباليه الخزفيّة الرقيقة وصورة في إطار معدنيّ لامرأة مبتسمة جميلة تشبه ستاسّو.

التقطت الفتاة راقصة الباليه وتأمّلتها مندهشة، لكن عندما كانت على وشك إعادتها إلى أسفل، جعلها صوت من المطبخ تقفز. سقطت راقصة الباليه على الأرض، ممّا أثار رعب الفتاة. في تلك اللحظة، فُتِحَ الباب.

كانت رينات خائفة، وسرعان ما عادت بسرعةٍ إلى السرير.

نظرت بخجل إلى ستاسّو، التي كانت ترتدي ثوبًا ورداءً شبيهًا بمعطفٍ أو جلد غنمٍ.

«صباح الخير! هل أخفتكِ؟ لا تخافي».

سحبت ستاسّو البطّانيّة بعناية، ورفعت ذراعيها إلى رينات، وعانقتها وأوقَفَتها مرَّةً أخرى على الكرسيّ.

«لقد صنعت هذا من أجلك، جرّبيه».

وضعت ستاسّو الفستان على جسدِ رينات.

«عليك أن تكوني لطيفةً، وسوف نقدّمك إلى والدك».

أصبحت رينات، التي ظهر رأسها لتوّها من عنق الفستان، قلقة. ستقدّمها لوالدها؟!

«نعم. اسمه أنتاناس. ستحتاجين إلى تعلّم بعض الكلمات اللّيتوانية. حسنا؟».

أومأت رينات.

أخذت ستاسّو رينات إلى الخارج، حيث كان أنتاناس يقطع الخشب. كانت قد ألبست الفتاة معطفا كبيرا جدّا عليها.

وقف أنتاناس هناك ممسكًا بالفأس وهوَ ينظر إلى الفتاة.

قالت ستاسّو، باللغة الليتوانيّة: «لدينا شيء نعرضه عليكِ». انحنت وابتسمت ثمَّ قالت لرينات: «اطرحي عليهِ سُؤالًا يا عزيزتي».

تحدّثت رينات بخجل، ونطقت بعناية كلّ مقطع لفظيّ من الليتوانيّة: «بابا، هل لديك براغيث؟».

ذهل أنتاناس في صمت، ثمّ انفجرَ بضحكة مدويّةٍ.

لم تكن رينات متأكّدة من كيفيّة الرّد. نظرت إلى ستاسّو، التي قالت: «فتاة جيّدة!» وابتسمت برضا.

رأى أنتاناس أنّه قد يكون أخاف الفتاة، جثا بجانبها.

حضنت رينات ستاسّو، كما لو أنّها تحاول الاختباء.

ابتسم أنتاناس: «لا، ليس لديّ براغيث يا ابنتي العزيزة». مدّ

يده وأخذ يد رينات.

«أنت بحاجة إلى بعض القفَّازات. ما هي كلمة "القفازات" بالألمانيّة؟».

قالت ستاسّو: «لدينا قفّازات»، وأعطت رينات بعض القفّازات المنقوشة التي خاطَتْها بنفسها. كانت تحيكُ زوجًا آخر لنفسها، لم تكن باردة اليوم. «لم يكن لديّ وقت لخياطةِ زوج جديد من القفّازات. سأفعل ذلك عندما أعود إلى المنزل من العمل».

«ارتدي القفّازات يا ستاسو». هرعت ستاسّو لمساعدتها. استطاعت الفتاة الآن أن ترى أنّ هذا الرجل الطويل القامة العريض الكتفين له ذراع واحدة فقط.

«هل ستساعدينني في تقطيع الخشب؟».

«لا تمزح هكذا يا أنتاناس. كيف يمكنها مساعدتك، فهي لا تزال مجرّد طفلة».

«لا تقلقي، سنعمل على حلّ المشكلة، سترين».

هزّت ستاسّو رأسها موبّخة، ناظرة في عين أنتاناس، وكأنّها تقول، لا تتحدّث بمثل هذا الهراء، لكنّ أنتاناس ابتسم وقال:«لا تقلقي».

جلست ستاسّو القرفصاء بجانب رينات، وقالت باللغة الألمانيّة: «يجب أن أذهب إلى العمل. ابقي هنا مع بابا».

نظرت إليها رينات والقلقُ يملأ عينيها.

قبّلت ستاسّو رينات وغادرت. اختفت على طول الطريق المؤدّي إلى البلدة الصغيرة.

تحدّث أنتاناس بلغة ألمانيّة مضحكة جدًّا، وأخطأ في نطق الكلمات وسقط في بعض الأحيان في الكلمات الليتوانيّة، موضّحًا أشياء معيّنة بالإيماءات.

«ستساعدينني في تقطيع الخشب، حسنًا؟».

نظرت إليه رينات ولم تقل شيئًا.

«لا تخافي، هذا ليس بالأمر الصعب. أرِيني أيّ قطعة من الخشب أحتاج إلى قطعها. أيّ واحدة؟ اختاري أنت. لا تخافي يا عزيزتي. حسنًا، أي واحدة تريدينَ قطعها؟».

أخيرًا، استجمعت رينات قواها وأشارت إلى قطعة من الخشب. أخذها والدها، وقطعها بفأسه، ووضعها على جذع آخر أكبر، وسحب الفأس، ورفعها، وشقّ الخشب بضربة واحدة.

خرج ميكيتا من قسم المبيدين في المنزل، ولا يزال نصف نائم. أخرج سيجارة وأشعلها وتأمّل الصَّباح الشتويَّ المشرق وعلى كتفه بندقيّة معلّقة.

رأى أنتاناس يقطع الخشب في نهاية الفناء بجوار الحظيرة، وبجانبه رينات، التي كانت تريه قطعة الخشب التي يجب تقطيعها بعد ذلك.

نفث ميكيتا البخار والدخان من فمه.

كان أنتاناس يقطع الخشب بمرح. لقد كان قويًّا وكانت كومة الخشبِ في نموٍّ.

أمّا رينات فكانت تدحرجُ جذعًا كبيرًا مغطّى بالثلوج على الأرض.

ضحك أنتاناس: «يمكنني قطعُ ذلك بضربة واحدة، اجذبي لي قطعة أشدّ سمكًا».

ابتسمت رينات، ولم تعد يخاف من هذا الرجل الضخم الذي يحملُ فأسًا.

لقد تفاجآ عندما جاء ميكيتا الأحدب.

«لماذا لست في العمل؟».

حفلت رينات. خائفة، وحدّقت في الأحدب.

يبدأ الناس عادةً بتبادل التحيّة، حتّى الخنزير سوف ينخرُ. من أين أتيت بالخشب؟ من سمح لك بقطعها؟

قال أنتاناس: «إنّه من غابة أبي».

قال ميكيتا: «جميع الغابات الآن ملك للدولة»، ونظرَ إلى رينات نظرة غريبة فاقتربت من جدار حظيرة التبن.

قال أنتاناس: «لقد سمح لي الحراج بأن أحصل على بعض الأخشاب من الأشجار التي سقطت».

«من أنتِ؟» سأل ميكيتا رينات.

لم تردّ.

«أعتقد أنَّها ألمانيّة».

«إنّها ليست ألمانيّة، إنّها ابنة أخت زوجتي من كاوناس. لم يتبقّ أيّ طعام تقريبًا في المدينة...».

قال ميكيتا باللغة الروسية: «أعتقد أنّها ألمانيّة». نظر إلى الفتاة: «لماذا لا تقولين أيّ شيء؟ لماذا تنظرين إليّ هكذا؟».

«لا تُخفها، أنتَ ترى الخوفَ على وجهِ الطّفلة».

«أنت ألمانيّة، أليس كذلك؟ ما اسمك؟ ما اسمك؟ هل أنت ألمانيّة؟».

وبصوت واضح، أجابته رينات باللغة الليتوانيّة: «**اسمي ماريتا. اسمي ماريتا**».

قلت لك، اسمها **ماريتا**.

حدَّق ميكيتا في رينات فترةً من الوقت، وابتسم بازدراءٍ، وبصق في الأرض، وسار في اتّجاه المدينة.

كان أنتاناس ورينات وإلزي يتناولون الغداء. وكانت إلزي تقدّم الحساء، وأنتاناس جالس عندَ نهاية المائدة، يقطع الخبز، أمّا رينات فكانت تنتظر أن تشرعَ في الأكلِ وهيَ تحملُ ملعقة بيدها.

قال أنتاناس مبتسمًا: «أعطي ماريتا المزيد، إنّها عاملة جيّدة جدًّا».

وضعت إلزي الحساء في وعاء أمامها. ابتسمت لرينات، لكنّها لم تقل أيّ كلمات ودودة. كانت رينات تأكل من شدّة الجوع، وتستمع بانتباه إلى اللغة التي لم تفهمها، وتراقب البالغَين اللذين حولها.

«ما هذه الأوقات التي نعيشها، يا الله، هناك إطلاق نار كلّ ليلة! يقولون إنّ الناس يرحلون مرّة أخرى، يأتون في الليل ويأخذونهم بعيدًا. لدينا روسيّون على الجانب الآخر من جدارنا، وميكيتا الأحدب، هنا كلّ يوم... سنجدُ أنفسنا قريبًا نعيش في سيبيريا، قلتُ لستاسّو أمس وأنا أقول لك الآن، لا يمكننا فعل هذا. لا نستطيع - علينا حماية أنفسنا، والتفكير في أنفسنا، وليس استقبال الأطفال الأجانب. يوجد أطفال في كلّ مكان، ألمان وروس، وأطفالنا أيضًا، فليس الأمر كما لو كان بإمكانك الاعتناء بهم جميعًا. علينا أن نعتني بأنفسنا الآن».

كان أنتاناس وستاسّو يمارسان الحبّ. كانا شابّين وجميلين في شغفهما المتبادل.

دوّى ضجيج من المطبخ. سقط وعاء ثمَّ سقطَ دلوٌ.

انهارت رينات في المطبخ وشعرت بالغثيان وتقيَّأت.

نظّفت ستاسّو الفتاةَ. نفخت على الجمر في الموقد وقالت إنّها ستعدّ بعض شاي البابونج على الفور.

أتت إلزي أيضًا، لقد نهضت من فرطِ الضوضاء. قالت: «أترين، الفتاة الألمانيّة مريضة، هل سنربحُ شيئًا منها».

أمر أنتاناس إلزي بغضبٍ أن تعود إلى النوم. احتضنَ رينات، التي كانت لا تزال تبكي، وحملها في أرجاء المطبخ.

«لا تبكي، لا تبكي. هل تعانين من آلام في البَطن؟ هل أنت خائفة من شيء مّا، هل حلمت بحلم سيّئ؟».

حمل الفتاة إلى النافذة، حيث أظهر لها اكتمال القمر وأخبرها أنّ القمر يضحك من الأشخاص الذين لا ينامون في الليل.

لفّت رينات ذراعيها حول أنتاناس وضغطت خدّها على كتفه حتّى هدأت فشعرت أخيرًا بالأمان.

أعطتها ستاسّو كوبًا من شاي البابونج وطلبت منها أن تشربه.

في تلك اللحظة، أُطلِقت أعيرةٌ ناريّة. بدا الأمر وكأنّ الناس يتبادلون إطلاق النار على حافّة الغابة.

«يا إلهي، هناك إطلاق نار... أطفئي المصباح!».

«هؤلاء المبيدون الملعونون!».

قالت ستاسّو: «تعالي إلى هنا يا صغيرتي، فلنذهب إلى الفراش».

ثمّ قالت لأنتاناس: «لا نريدها أن تخاف أكثر».

أغلق أنتاناس مصباح البارافين وظلّ واقفًا هناك، ينظر في اتّجاه الطلقات. تطايرت رصاصات عديدة بالقرب من المنزل.

أصبحت الطلقات أقلّ تواترًا.

كان المسار من المنزل منحدرًا وزلقًا جدًّا.

كانت ستاسّو تأخذ رينات إلى المدينة. نثر أنتاناس الحصى على الأرض، حتّى لا تنزلق «فتاتاه» وتسقطا. ضحكت ستاسّو.

عانق أنتاناس ستاسّو وقبَّلها.

انحنى بجانب رينات ونقر نقرةً على خدّها.

«كوني حذرة، لا تنزلقي».

ذهبت رينات وستاسّو في طريقهما.

كانت كلّ من رينات وستاسّو تسيران على جانبِ الغابة في اتّجاه المدينة. أمسكت ستاسّو بيد رينات. خرجت السّحب البيضاء من فمَيْهما، فقد كانَ البردُ قارسًا. كانت هناك ضوضاء خلفهم. استداروا. مرّت بهم عربة يجرّها حصانٌ ثمّ تجاوزتهم. كانت تعبرُ رفقة رجلين يسيران في صمت بجوار العربة. لقد أخافا رينات بعدَما نظرا إليها مباشرة. عانقت ستاسّو رينات بينما كانتا تقفان جانبًا وتشاهدان العربة وهي تعبرُ. كان شخص مّا ممدّدًا بداخلها مغطّى بالقش. مع مروره ترك أثرًا أحمر. كان دمًا. كانت تحمل جثث إخوة الغابة - كما أطلق اللّيتوانيّون على الثوّار المناهضين للسوفيت - الذين قُتِلوا. كان المبيدون يأخذونهم إلى المدينة. برزت يدٌ عبرَ كومَةِ القشّ.

أنهى الممرض المتنقل فحص رينات.

«لا شيء خطير، إنّها ضعيفة فقط. ربّما كان القيء ناتجًا عن الإفراط في الأكل، وربّما كان الطعام دسمًا جدًّا عليها. الفتاة تحتاج إلى بعض من كبد العجل والحليب لتقوية دمها».

«كبد العجل؟».

«أعلم أنّك لا تكادين تتمكّنين من الحصول عليه الآن، ولكن إذا قدرتِ على ذلك، فلتكتفي بتغليته، وأعطه لها لتأكلهُ».

«سأحصل على بعضه بطريقة مّا».

«ولماذا أنت حزينة جدًا يا ماريتا؟ عليك أن تبتسمي».

قالت ستاسّو: «إنّها تبتسم، طفلتي تبتسم».

«أنتم شعب شجاع يا عزيزتي ستاسّو». التفتت إلى الفتاة. «أنت يا ماريتا، يجب أن تبتسمي أكثر، عندها سيكون الناس أكثر لطفًا معك - لماذا تنظرين إليّ بغضبٍ شديد؟».

«أنت تتخيّل ذلك يا أنيل - إنّها طفلة جيّدة جدًّا، نحتاج فقط إلى بعض المستندات لها. ليس لديها أيّ وثيقة تبيّنُ أنّها ليتوانيّة. نحن في حاجة إلى إرسالها إلى المدرسة».

«أوّل شيء عليك القيام به هو تعليمها التحدّث باللغة الليتوانيّة جيّدًا. بالنسبة إلى الوثائق، كلّ ما يمكنني فعله هو إصدار بطاقة طبّيّة لها، لكن هذا لا يكفي. ربّما يستطيع الكاهن مساعدتك».

«على الأقلّ أصدِر لها بطاقة، على الأقلّ، افعل ما تستطيع. شكرًا شكرًا».

ذهبت ستاسّو إلى الخزانة، وفتحت أحد الأدراج وأخرجت صندوقًا صغيرًا رقيقًا.

أخذت الصندوق إلى الطاولة، وفتحته. كانت هناك جميع أنواع المجوهرات بالداخل، وبعض الرسائل من أختها وراقصة الباليه الخزفيّة التي كسرتها رينات.

طلبت ستاسّو من رينات الاقتراب. أخرجت بعض الأقراط الذهبيّة ووضعتها أمامها ثمَّ نظرت في المرآة داخل الصندوق. قالت للفتاة: «هذه الأقراط كانت لأمّي».

قال رينات: «تلك الراقصة ... المكسورة».

«لا يهمّ، لقد كانت تقف على ساق واحدة فقط، وكنت أقول منذ فترة طويلة إنّها ستفقد توازنها يومًا مّا وإنّها سوف تُطرَد».

التقطت رينات منجدًا جميلًا وفحصته.

«افتحيه، هناك شيء بداخله».

فتحت رينات المنجد ورأت صورة لفتاة صغيرة.

«هذه أختي أونوتو، كانت فتاة جميلة جدًّا. أعطتني هذا المنجد لأتذكّرها، كما لو كانت تعتقدُ أنّهُ يمكنني نسيانها. إنّها تعيش الآن في كاوناس وتعملُ راقصة. ذهبنا لرؤيتها ترقص مع والدي الذي مات للتوّ. كانت جميلة جدًّا، مع تنّورة بيضاء كاملة. بكى والدي وهو يراقبها».

التقطت رينات صورة لامرأة تشبه ستاسّو.

«هل هذه هي؟».

«نعم، هذه هي، يمكنك أن تري كيف كبرت تلك الفتاة الصغيرة لتصبح امرأة شابّة. إنّها تشبه إلزي إلى حدٍّ بعيدٍ».

***

كانت إلزي تقف في المدخل منذُ فترة طويلة.

«نعم، أريها كلّ شيء - القلائد والأقراط - حتّى تتمكّنَ من سرقتها».

خلعت ستاسّو الأقراط ولفّتها في منديل صغير. لم تضعها بعيدًا مرّة أخرى، لكنّها تركتها على الطاولة. أقفلت الصندوق وأعادته إلى الدرج.

عندما مرّت إلزي متجاوزة ستاسّو، قالت: «نعم، خذي كلّ شيء وبيعيه...».

قالت ستاسّو: «إنّها أقراط أذن، وليست ملككِ».

تُرِكت رينات بمفردها في الغرفة. يمكن سماع أصوات ستاسّو وإلزي غير المفهومة قادمة من المطبخ. من خلال النافذة، رأت رينات ستاسّو تسرع وهي متوجّهة إلى مكان مّا.

نظرت رينات إلى الصور الموجودة على الخزانة لكنّها لم تلمس أيّ شيء، خشية أن تكسر شيئًا آخر.

تجوّلت في غرفة المعيشة وتوقّفت عند صورة رجل، ربّما يكون والد ستاسّو. كان الرجل العجوز يرتدي ملابس الصيد ويحمل بندقيّة وبجانبه كلبٌ كبيرٌ.

حدَّقت رينات في صورة يسوع المسيح معلقة على الحائط. بدا وكأنّه يبتسم بشكل غير محسوس تقريبًا، ويشير إلى قلبه، وجبينه مثقوب بتاج من الأشواك.

نظرت إليه فترةً طويلة إلى درجة أنّ المسيح بدا فجأة وكأنّه يغمز إليها بشكل مضحكٍ.

لم تصدِّق رينات ذلك. انتظرت أن يعطيها المسيح علامة أخرى، لكنّ الصورة كانت مجرّد صورة.

دخلت إلزي فذهلت الفتاة.

قالت: «تعالي معي، سأعطيك شيئًا لطيفًا لتأكليه».

أكلت إلزي وهيَ تبتسم لها بسرور، لكنّ عينيها أخافتا الفتاة.

كانت إلزي قد وضعت بعض شرائح الخبز على الطاولة.

مسحت جرّة زجاجيّة مغبرة بها مربّى، وفتحتها، ووضعتها بجانب الخبز، وأعطت رينات ملعقة وسكبت لها بعض الشاي.

كانت إلزي تتحدّث تقريبًا مثل ساحرة مخادعة: «لقد صنعت هذا المربّى بنفسي، لقد قطفت التوت بنفسي الصيف الماضي. صنعت ستاسّو أيضًا بعض الأشياء، لكنّهما أكملاها. هي وأنتاناس لا يعرفان كيفيّة توفير الأشياء. يأكلان كلّ شيء، ويعطيان كلّ شيء للآخرين، بينما أضع الأشياء جانبًا وأمسك بها. أختي وزوجها شخصان طيّبان جدًّا، لكنّهما مازالا لا يعرفان معنى الادّخار للأيّام العصيبة. هل تعرفينَ أين ذهبت ستاسّو الآن؟ ذهبت لبيع الأقراط التي قدّمتها لها والدتها الميّتة هديّةً، لأنّها تريد أن تعطيك كبد العجل. لا يكاد يكون لديهم أيّ شيء يأكلانه، لكنَّهما يريدانِ إعطاءك كلّ شيء. وماذا سيحدث عندما لا يكون لديها أيّ أقراط وأيّ أكل؟ ما الذي ستبيعه بعد ذلك؟ أنت فتاة جيّدة جدًّا، جميلة جدًّا، وأنا معجبة بك كثيرًا، لكنّهما لا يفهمان أنّهما لا يستطيعان دعمك. أنت تحتاجين إلى العودة إلى المنزل لوالدتك، والدتك الحقيقية، التي تفتقدك كثيرًا، والتي تنتظرك، والتي لديها بعض الهدايا في انتظارك عندما تصلين إلى المنزل. كُلي المربّى،كُلي.

أرادت رينات بقوّةٍ الحصولَ على المربّى، لكنَّها حاولت أن تأكل بأقلّ قدر ممكن منه.

قالت إلزي: «ربّما أنتِ لا تعرفينَ ذلكَ، لن تخبرك ستاسّو وأنتاناس، لأنّهما لا يريدان السماح لك بالرحيل. إنّهما يحبّانك مثل

لعبة جميلة، مثلَ دمية. ولكن في مكان قريب جدًّا، فقط على الجانب الآخر من الغابة، جمع الروس الكثير من الألمان. سمعت أنّ والدتك يمكن أن تكون هناك أيضًا. ستاسّو وأنتاناس طيّبانِ، لكنّ فيهما شيئًا من الأنانيّة، فماذا سيحدث عندما ينجبان طفلًا؟ لن يحتاجا إليك بعد الآن، وفي هذه الأثناء قد تكون والدتك، التي كانت تبحث عنك ولم تجدك، قد غادرت بالفعل ولم تعد البتّةَ. إذا بقيت، فلن يحتاج إليك أحدٌ وستكونين وحيدة. يمكنني أن آخذك عبر الغابة إلى والدتك. كُلي المربّى، كُلي».

كانت رينات تنظر إلى إلزي، غير متأكّدة مما إذا كانت ستصدق ما تقوله لها هذه المرأة الغريبة المبتسمة.

كانت شفتا رينات مغطاة بالمربّى ولونها أحمر يشبه الدّم.

«هل تريدينني أن آخذك إلى والدتك؟»

كان الجوّ هادئًا في الغابة؛ ولم يكن ثمّة شيءٌ يتحرّكُ، فقد كانَ كلّ شيء مغطّى بطبقة سميكة من الثلج.

ثمّ جاء صوت تساقط الثلوج تحت الأقدام، وظهرت إلزي ورينات.

ظلّت رينات تتخلّف عن الركب، وانتظرت إلزي أن تلحق بالركب.

«المكانُ ليس بعيدًا، ليس بعيدًا مطلقًا، لقد وصلنا تقريبًا إلى حافّة الغابة».

سارا فترةً طويلة، كانت رينات تكافح من أجل مواكبة ذلك. أصبحت الغابة أكثر كثافة. كان الظلام يسدلُ ستائرهُ ببطءٍ.

توقّفت رينات. استدارت إلزي. ارتسمت ابتسامة خبيثة على وجهها.

«لنذهب. لماذا توقّفت؟ ألا تريدين أن تكوني مع والدتك؟ والدتك تنتظرك».

ثمّ شعرت رينات بشيء باردٍ قادم من فم إلزي، كما لو كانت

ريحًا باردة تهبُّ من الفراغ. بدأت قمم الأشجار في الغابة تسطع، وبدأ الثلج يتساقط من أشجار التنّوب المغطّاة بالثلوج. قالت الساحرة وهي تدور على قدم واحدة: «المكانُ ليسَ بعيدًا الآن». كانت عاصفة ثلجيّة مستعرة تقذف من فمها، عاصفة ثلجيّة غطّت كلّ شيء؛ كان كلّ شيء من حولهما أبيض اللون، والأشجار تتمايل مثل الصواري على متن سفينة شراعيّة في وسط بحر جليديّ لا نهاية له.

مدت إلزي يدها وتقدَّمت إلى رينات. اقتربت أكثر فأكثر.

فجأة، اندفع عواء ذئب من بعيد، متسرّبًا عبر صفير العاصفة الثلجيّة والظلام الذي يجرُّ خطواتهُ شيئًا فشيئًا. بدا أنّ العواء يوقظ الفتاة. بدأت رينات بالركض، والعاصفة الثلجيّة مستعرة في كلّ مكان حولها، والأشجار وظلالها، والثلج وإلزي كلّها جزء من العاصفة نفسها.

ركضت رينات بعيدًا، فطاردتها ضحكات السّاحرة.

كانت رينات متكوّرة في السرير. أخيرا فتحت عينيها. كانت غارقة في العرق. لقد أصابتها الحمّى.

كان بإمكان رينات سماع كلام ستاسّو وإلزي في المطبخ. كانت ستاسّو توبّخُ إلزي لأنّها تسبّبت في نزلة البرد التي أصابت رينات.

هدأت رينات. حدّقت في السقف ورأت والدتها وإخوتها وأخواتها، وشخصًا آخر لم تعد تتذكّر وجهه. والدها.

تمسّكت رينات بوسادتها بإحكام وبكت.

مرّت الأيّام بسرعة وسعادة. تنسابُ الرّوائح العطرة في الهواء مثل مشروب مُحلّى بالعسل، أو نسغٍ يقطرُ من شجرة، تخرج في الربيع من أعماق الأرض وتتدفّق على طول الأغصان حتّى تشرق باتّجاه الشمس، فتنفجر البراعم وتتفتّح الأزهار. في تلك البراعم، في قوَّتها، يمكنك أن تشعر بالفاكهة، وحموضتها وبرودتها، وهيَ تنعش الحنك برفقٍ.

مرّت الأيام بهذا الهدوء.

خرجت رينات من سقيفة الخشبِ تحمل حزمة من الحطب. لفتت انتباهها رقاقات الثلج المتدلّية من سقف السقيفة، كان هناك الكثير منها. بدَت مثل أسنان التنين.

أسقطت رينات الخشب ونظرت إلى رقاقات الثلج. لمست أحدها، ثمّ رفعت عينيها ونظرت إلى الغيوم.

التقطت قطعة من الخشب وبدأت بضرب رقاقات الثلج في مرحٍ، حتّى انكسرت بصوت رنين خفيف.

ميكيتا، نصف ثمل، خرج من مكان مّا، كي يخيف الفتاة.

سألها بالروسيّة، ماذا تفعلين هنا؟

شهقت قليلًا ثمّ استدارت خائفة ونظرت إلى ميكيتا، وهي لا تزال تمسك بقطعة الخشب في يدها.

«ما الذي تفعلينه هنا؟ قولي لي من أنت؟ أنت ألمانيّة، أليس كذلك؟ قولي «يحيا هتلر!» قولي «يحيا هتلر!» هل تسمعينني؟ أنت ألمانيّة».

قالت رينات باللغة الليتوانيّة: «اسمي ماريتا».

«أعلم أنّك ألمانيّة. يمكنني إطلاق النار عليك. لديّ مسدّس،

يمكنني إطلاق النار عليك».

«اسمي **ماريتا**».

«لا، أنت ألمانيّة. قولي يحيا هتلر!».

كان ميكيتا يمسك الفتاة من رقبتها ومسدّسٌ في يده الأخرى وعيناه محتقنتانِ بالدّماء. لم تستطع رينات التَّنفُّسَ، لكنّها كرّرت العبارة نفسها بصوت مسموع: «اسمي **ماريتا**».

جاء أنتاناس يركض عبر الفناء. وصل إلى ميكيتا والفتاة، أمسكه وسحب الطفلة منه، وأخذ مسدّسهُ ودفعه على كومة الحطب، حيث كانت رقاقاتَ الثلج تتدلّى.

«ماذا تريد من الفتاة؟ ماذا تريد يا حيوان؟ ألم يساعدك والداي بما فيه الكفاية؟ لقد عملت لديه وبفضلهِ حياتك جيِّدة الآن، ألم نساعدك بما فيه الكفاية؟ قل شيئًا، أيّها الحيوان... قل شيئًا! صرخ أنتاناس، ومازال متمسكًا بميكيتا».

«كنت أمزح فقط، أردت فقط أن أضحك يا أنتاناس. لم أكن أرغب في ...».

«إذا لمست طفلتي مرّةً أخرى، سوفَ أقتلك».

أخرج أنتاناس الرَّصَاصَ من المسدّس وألقاه في الثلج، ثمّ ألقى السلاح على ميكيتا.

قال أنتاناس: «لا تخافي، لا تخافي يا ابنتي الصغيرة، لن يلمسك،

لن يلمسك مرّة أخرى. لنذهب إلى الداخل».

ذهبا،بينما ظلّ ميكيتا يشاهدهما وهما يغادران. بدا الأمر كما لو كان يبكي بدموع سكرانةٍ.

كان أنتاناس جالسًا على المقعد، يراقب الحطب يحترق في الموقد. كانت ستاسو جالسة بجانب زوجها، وذراعاها حوله ورأسها على كتفه وهو يتحدّث.

«علينا أن نتّبع نصيحة الممرّضة، وعلينا أن نرى القسَّ، قد نتمكّن من الحصول على المستندات الصحيحة للفتاة بطريقة مّا. لقد أصبح الأمر خطيرًا. إنّ ميكيتا جبان وقذر، لقد أخاف الطّفلة بالفعل، ماذا لو لم يكن ميكيتا وكانَ شخصًا آخر... الطفلة المسكينة! علينا أن نأخذ بعض الدهون إلى الكاهن، وآخر جرّة من العسل - ليس لدينا خيار، نحن بحاجة إلى تلك الوثائق».

«نعم يا عزيزي أنتاناس، نعم ...».

قبّلت ستاسّو أنتاناس.

«ليست هناك حاجة إلى ذلك، يا أعزّ ستاسّو. الطفلة تشاهدنا».

كانت رينات واقفة في المدخل. نظرت نظرة مفاجئة ثمَّ استدارت وغادرت الغرفة. ضحكت ستاسّو وأنتاناس بهدوءٍ.

تجوّلت ستاسّو في ساحة البلدة مع الفتاة، وكان ثمّةَ عاملُ مبيدات مخمور يتجوّل، يراقب الجميع وهو يحرس جثثًا مشوهة للأنصار عُرِضت في الميدان.

غطّت ستاسّو عيني الفتاة بيدها لمنعها من رؤية العرض المروّع.

«لماذا تفعلينَ ذلك؟ دعها ترى اللصوص» قال عاملُ المبيدات.

لم تردّ ستاسّو، لكنّها مضت في طريقها، محاولة حماية ابنتها من ذلكَ المشهدِ الموحش.

ذهبت المرأة والفتاة إلى الكنيسة، حيث ركعت ستاسّو. جلست رينات في مقعد. «انتظري هنا، ابنتي الصغيرة العزيزة، سأعود قريبًا. عليّ أن أذهب إلى الخزانة».

كانت الكنيسة شبه فارغة.

جلست رينات في مقعدها منتظرة. نظرت إلى المسيح الضخم فوق المذبح، إلى الملائكة والقدّيسين. بدأت تصلّي بصمتٍ.

فليوفّقنا الربُّ جميعًا، آمنين، حتّى يجد الجميع أهلهم ويأكلوا. ساعدنا على قتلِ هذا الخوف...

ابتسم المسيح بصمت، ناظرًا إلى الأسفل برأفة.

بعد فترة وجيزة عادت ستاسو وأخذت رينات من يدها وقادتها إلى الخزانة. كان الكاهن جالسًا هناك. كان رجلًا بدينًا، وله وجه لطيف ووجنتان حمراوان..

استدار عندما دخلت ستاسّو ورينات الخزانة.

«إذن هذه طفلتنا الصغيرة المسكينة الضائعة... ما اسمك يا طفلتي؟».

قالت الفتاة الخائفة باللغة الليتوانيّة: «اسمي **ماريتا**».

قال الكاهن ضاحكًا: «أترين يا لها من فتاة ذكيّة، يا لها من فتاة ذكيّة **ماريتا**».

نظر إليها بعض الوقت دون أن يتكلّم، لكنّ عينيه ابتسمتا. رأت رينات أنّ من المفترضِ أن يكون شخصًا جيّدًا.

كان أنتاناس وستاسّو مستلقيَين على السرير، لكنّهما لم يناما بعد.

قال الكاهن: «أتؤمن بيسوع المسيح؟» فأجابت: «نعم».

«فتاة ذكيّة... ».

ثمّ سأل: «هل أنت كاثوليكيّة؟» اكتفت بالنظر إليه ولم تقل شيئًا.

«كيف يُتوقّع من الطفلة أن تعرف ما إذا كانت كاثوليكيّة أم عضوًا في الكنيسة الإصلاحيّة أم ديانة أخرى؟».

ثمّ قال الكاهن: «علينا أن نعمِّدَكِ، لن يضرّ ذلك إذا كانت للمرّة الثانية».

«علينا تعميدها، وبعد ذلك سنحصل على الوثائق التي نحتاج إليها».

قال الكاهن إنّه سيتمّ إدخالها في سجلّ الوفايات، ثمّ يتعيّن حذف الإدخال، مع توضيح حدوث خطإ.

«إذا كان هذا ما قاله الكاهن، فهو يعني أنّه يعرف ما يتحدّث عنه. يجب أن يكون كلّ شيء على ما يرام الآن، هل سمعت ذلك

الآن؟».

لقد استمعا بعناية.

أصبح بإمكانهم الآن سماع الصوت بوضوح، كان أحدهم يطرق النافذة.

انتقل أنتاناس من غرفة النوم إلى المطبخ، ثمّ إلى النافذة. جاء يطرق مرّة أخرى.

«من هناك؟ ماذا تريد؟ ما الذي يحدث هنا؟».

«هذا أنا، ميكيتا. افتح. نحن بحاجة إلى التحدّث».

وقفت ستاسّو في المدخل.

وخرجت إلزي من غرفتها.

ذهب أنتاناس إلى الشرفة، وفتح الباب، وسمح لميكيتا بالدخول وأخذه إلى المطبخ.

«عليك الركض، وجمع الأشياء الخاصّة بك وتجهيزها، سيرحّلونك الليلة».

قالت ستاسّو: «يا يسوع». بدأت الصلاة بهدوء وبشكل تلقائيّ تقريبًا.

«أبلغ شخص مّا عنك بسبب الفتاة الألمانيّة... لم أكن أنا، صدقًا، لم أكن أنا».

مضى أنتاناس إلى ستاسّو، غير متأكّد ممّا يجب فعله. سقطت نظرته على إلزي، التي لم تكن متفاجئة أو خائفة.

«أنتاناس، لم يكن أنا! قال ميكيتا مرّة أخرى. عاد مسرعًا إلى الشرفة واختفى في ظلام الليل».

«ماذا سيحدث الآن، يا يسوع، ماذا سيحدث الآن؟».

من خلال النافذة رأوا أضواء السيّارة تتّجه نحو مزرعتهم من حافّة الغابة.

«إنّهم قادمون. أحضري الطفلة، وجهّزي الملابس المدفّئة، والفراش، وسأخرج الدّهون من العلّيّة. علينا أن نستعدّ».

رأت ستاسّو رينات واقفة في المدخل خائفة. عانقتها وبدأت تبكي.

«سيأخذوننا بعيدًا، سيأخذوننا بعيدًا، يا طفلتي العزيزة، يا طفلتي الحبيبة، ماذا سيحدث لنا».

«ستاسّو، جهّزي الطّفلة، استعدّي، تلك الشياطين لن تنتظر» قاطعها زوجها بصرامةٍ. ارتدى سترته، وصعد بسرعة إلى العلّيّة للحصول على الدهون.

«قلت لك إنّهم سيأخذونك بعيدًا بسبب ابنة الشيطان هذه. قلت لك!». قالت إلزي بغضب.

«أغلقي فمك، أنت كائن بلا قيمة وبلا قلب! لن أسمح لطفل

بريء أن يعاني. استعدّي يا ماريتا».

أسرعت ستاسّو إلى الغرفة الأخرى.

قال أنتاناس: «من هذا؟ انتظري لحظة، أنا أرتدي بعض الملابس فقط!».

ركضت ستاسّو لإحضار شيء مّا، بينما تمطر الضربات على الباب. أعادت الكنج الذي عليه صورة أختها وصليب صغير، وأعطتها لرينات.

قبَّلت ستاسّو رينات، وفتحت علامة الصليب فوقها، ثمّ فتحت النافذة الصغيرة، وساعدت الفتاة على التسلّل من خلالها وصرخت، ونادت الفتاة بعد ذلك: «اركضي يا ابنتي الصغيرة العزيزة، اركضي، فليوفّقك الرَّب! وتذكّريني، تذكّريني أنا وأنتاناس ...».

كانت رينات خائفة. هناك الكثير من الضجيج بالخارج، كانت السيّارات تنطلق. سقطت في الثلج، لكنّها سرعان ما نهضت وركضت، ركضت دون توقّفٍ.

ذهبت ستاسّو إلى المطبخ. كان عمّال المبيدات موجودين بالفعل في المنزل. كان قائدهم رجلًا ضخمًا بوجه أحمر.

سأل القائد: «أين الفتاة الألمانيّة؟».

«أيّ فتاة ألمانيّة؟» سأل أنتاناس متظاهرًا بجهلهِ الأمرَ.

«اللعنة،أنتاناس، أنا لا أمزح، أين الفتاة؟ قل لي وإلا ستبصق دمًا عمّا قريب».

«بنت؟ هل تقصد ابنة أخت ستاسّو؟».

«بنت؟ حسنًا، أين هذه الابنة؟».

«وضعناها في سيّارة إلى كاوناس».

فجأة ضرب زعيم المبيدات أنتاناس بعقب بندقيّته. «ما الذي تثرثر فيه بحقّ الجحيم، وضعناها في سيّارة؟! ابحث في المنزل!». أمر زعيمُ عملة المبيدات.

هرع اثنان منهم لفحص الغرف. ستاسّو، التي كانت شفتها تنزف، انضمّت إلى أنتاناس.

ركضت رينات عبر الغابة. استمرّت في التعثّر على الأغصان المتساقطة، والانزلاق في الثلج والاستلقاء هناك لحظةً، والاستماع، ثمّ النهوض والركض مرّة أخرى.

كانت شاحنة عمّال المبيدات متوقّفة في الفناء. وبجانبها كثير من الجنودِ المسلّحين. خرج أنتاناس وستاسّو من المنزل، ووضعا الحزم في السيّارة، وصعدا إلى المقطورة ووقفا يتعانقان بقوّةٍ.

كان من الممكن سماع صرخة،كانت صرخة إلزي.

كانت في المدخل. لم تكن تريد الذهاب إلى أيّ مكان.

ركلها قائد عمّال المبيدات بقوَّةٍ فسقطت من الدرج في الفناء على

وجهها.

«انهضي أيّتها العاهرة، توقّفي عن الثّرثرة!».

حاولت إلزي الوقوف، زحفت إلى القائد وقبّلت قدميه، وهي تبكي بصوتٍ عالٍ.

أنا بريئة، أنا بريئة! لم أستقبل تلك الفتاة الألمانيّة، لم أكن أنا! لماذا يجب أن أُرسَل إلى سيبيريا يا سيّدي؟ لماذا أنا؟ أنا بريئة، قلت إنّ الفتاة ألمانيّة، وقلت إنّه يجب طردها، وقلت لهم، لست أنا من أحضرها إلى المنزل، يا سيّدي، ارحمني، ارحمني! كنت من أخبرتك بذلك، لم أفعل أيّ شيء، أعلم أنّه يجب تسجيلُ هؤلاء الألمان!».

ضربة من مؤخّرة البندقيّة على وجه إلزي أسكتتها؛ سقطت على الأرض دون صوت ووجهها غارق في الدّماء.

قفز أنتاناس من المقطورة، ورفع إلزي وساعدها على الدخول. تعافت إلزي جزئيًّا الآن وبدأت تنتحب، لكن بهدوء، مدركة أنّ الأمر ميؤوسٌ منه.

وضعت ستاسّو ذراعيها حول إلزي ومسحت وجهها المشوّه بالدّماء في رفق. كانوا يجلسون في زاوية من المقطورة، وضغط الثلاثة بعضهم على بعضٍ عن كثب.

تحرّكت الشاحنة وتركت القرية وراءها.

تلاشت صور ستاسّو وإلزي وأنتاناس بعيدًا؛ أصبح من

المستحيل إخراجهم بعد الآن. تحوَّلت الشاحنة إلى مسارٍ ضيّق. لا يزال من الممكن رؤية أضوائها فقط.

كانت رينات تشقّ طريقها عبر الغابة وهيَ تسمع صوت الشاحنة وترى مصابيحها تتألّق عبر الأشجار.

كانت من نوع الشاحنات نفسها التي ترحّل ستاسّو وأنتاناس، لكنّها ربما لم تكن هي نفسها بالضبط.

راقبت رينات الشاحنة البالية وهي تمرّ بجانبها محدثة قعقعة. لم يكن في عينيها شيء، لا خوف ولا غضب.

حدثَ ذلك في الصباح الباكر. ظهر شخص صغير في نهاية شارع بالمدينة، كانت رينات. لم تكن متأكّدة من طريقها، لكنّها في النهاية بدت وكأنّها قد تعرَّفت على شيء مّا واستدارت في اتّجاه المنزل حيث كان مكتب الممرّضة.

طرقت رينات الباب.

فتحته أنيلي وسألت بصوت خائف: «ماذا حدث؟».

«أنا **ماريتا**. أخذ عمّال المبيدات والدتي ستاسّو إلى سيبيريا، كما أخذوا أبي أنتاناس».

فهمت الممرّضةُ كلمات رينات وأصبح خائفًا أكثر. «يا إلهي، لقد أخذوا ستاسّو العزيزة بعيدًا، يا إلهي، لقد أخذوا ستاسّو بعيدًا».

«قالوا لي أن آتي إلى هنا، قالوا إنّك ستساعدني...».

«قلت لها إنّهم لا ينبغي أن يأخذوك، قلت لها إنّك موت، وإنّك كنت حظًّا سيّئًا، ومصيبة تسير على قدم وساق! اذهبي بعيدًا، ابتعدي من هنا، اذهبي إلى مكان آخر، ابحثي عن منزل آخر، لا أستطيع - لن آخذك. لا تجلبي سوء الحظّ إلى منزلي، اذهبي بعيدًا».

أغلق الممرّضة الباب في وجه الفتاة.

وقفت رينات هناك بضعَ لحظات، كما لو كانت تنتظر شخصًا مّا أو شيئًا مّا، ثمّ استدارت ومشت بتردّدٍ في الشارع، دون أن تعرف إلى أين تتّجه الآن.

فجأة فتح باب منزلُ الممرّضة مرّة أخرى. خرجت أنيلو، ووجهها مظلّل بالدموع. عندما لحقت برينات، دفعت بحزمة من الطعام في يديها، وسرعان ما وضعت علامة الصليب عليها وركضَت عائدةً إلى المنزل ثمَّ أغلقت الباب.

كانت رينات تسير على طول الطريق.

كانت رينات جالسة، متّكئة على حمّام قديم وهي تشاهدُ طيور الربيع تغرق في الأشجار المتمايلة.

كانت الشمس مشرقة، والجداول تثرثر بجانب العشب الذي نما على الأرض.

فكّت رينات الحزمة التي أعطتها الممرّضة إيّاها، قطعة من لحم الخنزير وشريحة من الخبز وبيضتان. بدأت تأكل.

دخلت رينات كنيسة فارغة يتردّد صداها. إنّها الكنيسة نفس التي كانت فيها مع ستاسّو.

نظرت إلى التماثيل، إلى يسوع المسيح المعلّق على الصليب.

سمعت سعالًا - خرج رجل من الموهف[4]، وجثا على ركبتيه برهةً أثناء مروره بالمذبح ونظر إليها بصمت. كان سائق عمّال المبيدات. كان هناك عندما أخذوا أنتاناس وستاسّو بعيدًا، لكنّهم وقفوا بعيدًا عن البقيّة.

ذهبت رينات إلى الموهف.

كان الكاهن، مرتديًا رداءه، يرتّب ثيابه الليتورجيّة.

دخلت رينات بلا ضوضاء وشاهدته وهو يعمل.

وكأنّه شعر بشيء مّا، استدار الكاهن. بدا متفاجئًا لرؤية رينات. ابتسم.

آه، إنّها حبيبتنا ماريتا.

«لقد أخذوا والدتي ستاسّو بعيدًا».

4غرفة المقدسات وملابس الكهنة في الكنيسة [المترجم]

«أنا أعرف. ستاسّو وأنتاناس شخصان طيّبان. ليساعدهما الربّ في رحلة حزنهما وطريق معاناتهما».

«ساعدني، أتوسَّلُ إليك، خذني، أتوسّل إليك! أنا أؤمن بالرّب، أنا كاثوليكيّة».

نظر الكاهن إلى رينات. بدت إيماءاتهُ خطيرة، لكن لعلّه ببساطة قد ضاع في التفكير.

كانت ريناتت أكل الحساء من وعاء كبير.

كانت تسمع الكاهن يتحدّث إلى مدبّرة منزله.

أعطى الكاهن للمدبّرة ورقة.

«خذي الفتاة إلى هذا العنوان. لا تزال هناك بعض الراهبات اللواتي يمكنهنَّ أن يعتنين بها. كما يحدث، سيأخذ بوليسلافاس المبيدات إلى كاوناس - لا تخبريه من هي، فقط دعيه يسلّمها إلى الأب راموجوس، ستذهبُ إلى المدرسة معه، وسيعرف ماذا يفعل. ستأخذها إحدى الرّاهبات وتعتني بها. كاوناس مدينة كبيرة، ستكون أكثر أمانًا هناك».

كانت شمس الربيع مشرقة. أمسك السّائقُ بوليسلافاس رينات بيده. ذهبا إلى الشاحنة. وكان كثيرون من عمّال المبيدات ينتظرون وبنادقهم معلّقة على أكتافهم.

كانوا يدخّنون ويمزحون فيما بينهم. استقبلهم بوليسلافاس.

«ومن هذه؟ ابنتك؟» سأل أحد عمّالُ المبيدات.

«لا،إنّها قريبتي. عليّ أن آخذها إلى كاوناس. هل يمكنك إفساح المجال لها؟».

هزّ أحدُ العمّال رأسهُ: «نعم نستطيع».

في تلك اللحظة، ظهر ميكيتا من خلف الشاحنة. التقت عينا ميكيتا بعينيها. كانت رينات خائفة جدًّا إلى درجة أنّها لم تستطع التحدّث. كان جميع رجال المبيدات ينتظرون سماع اسمها. كانت رينات صامتة. لكنّ ميكيتا ابتسم.

«اسمها ماريتا، أنا أعرفها. دعنا ندخل. قال ميكيتا «الملازم قادم».

حمل عمّال المبيدات رينات ورفعوها إلى الداخل.

صعد الملازم، وألقى نظرة شديدة على عمّال المبيدات وجلس بجانب السائق.

صعد الرجال إلى الداخل وانطلقت الشاحنة.

غادرت شاحنة عمّال المبيدات البلدة. اخترقت رياح الربيع الباردة معاطفهم الرائعة. رفعوا أطواقهم إلى أعلى وسحبوا أغطية آذانهم إلى أسفل. كانوا يجلسون على الألواح الخشبيّة الممتدّة على جوانب المقصورة، ممسكين ببنادقهم بإحكام، والأعقاب مستلقية على الأرض. كان بعضهم، الأكثر ذكاءً، قد دخل أوّلًا وتجمّعوا معًا في المقطورة، حيثُ القشُّ وحيثُ الجوُّ أكثر دفئًا. أخبر ميكيتا رينات أن تستريحَ بين الرجال نصف الجالسين ونصف الصّادقين. بمجرّد أن تنحشر بينهم، لن تصلها الريح؛ كانت محميّة من قبل المقصورة ورجال المبيدات ذوي الأكتاف العريضة. لم تستطع الفتاة أن ترى سوى السحب والسماء وأغصان أشجار البلدة التي تختفي الآن خلفها، ووجوه الرجال المسلّحين، الذين احمرّوا من الريح، الذين لم يجدوا مكانًا للاستلقاء على الأرض.. نظرت إليهم رينات وتفاجأت عندما أدركت أنّهم جميعًا متشابهون.

سرعان ما كانت الشاحنة تسافر عبر الريف الرّحب خارج المدينة. بالنظر إلى الأعلى، كلّ ما كان بإمكانك رؤيته هو سقوط السحب بعضها فوق بعضٍ، وتشكّل أعمدة كبيرة مثل الدخان المتصاعدِ من حرب لا تنتهي أبدًا. وجدت رينات أنّ السماء مقلقة، وقلبها مملوء بالظلام وبخوف غير مفهوم. كانت تفكّر في والدتها

وعمّتها لوت، تذكّرت مونيكا، بريجيت، هاينز، العمّة مارثا، تذكّرت كلّ من كان جيّدًا معها، وكذلك أولئك الذين أساؤوا إليها. أحيانًا، كانت الشاحنة تهزّ الركاب، وفي بعض الأحيان تهزّهم مثل طفل في مهد، ولكن كلّ هذه الحركة اندمجت معَ الموسيقى الإيقاعيّة التي تحفِّزُ على النوم. بدأت عينا الفتاة تغلقان، والقلق والإرهاق في اليومين الماضيين ملقًى على جفونها مثل عبء ثقيل لا يطاق تقريبًا. أنصتت إلى صوت أزيز المحرّك، وجلجلة العجلات وصفير الريح، انزلقت رينات ببطء إلى حلم، واندمجت الحقيقة مع قصّة خياليّة. رأت والدتها، لكنّها لم تستطع رؤية وجهها. كانت والدتها قد ابتعدت ولسبب مّا لم ترغب في العودة للنظر إلى رينات، ابنتها الحبينية. أرادت رينات أن تنادي، لكنّ صوتها كان محاصرًا في حلقها. وعندما تمكّنت أخيرًا، بصعوبة كبيرة، من نطق اسم والدتها، عندما استدارت والدتها أخيرًا، رأت أنّها ليست والدتها على الإطلاق. لا تزال المرأة تشبه والدتها، لكنّ وجهها كان مختلفًا؛ بدا الأمر مشابهًا تمامًا لما كانت عليه المرأة الروسيّة التي انتقلت إلى منزلهم.

أيقظت الطلقة الأولى رينات من سباتها. كانت الشاحنة في الغابة الآن. سرعان ما أمسك الرجال بأسلحتهم وجلسوا على الأرض للاختباء خلف جوانب المقطورة. دوّى دويّ أسلحة رشّاشة وردّ المبيدون بإطلاق النار. طلقة حمراء اخترقت رأس أحد الرجال فسقطَ على الأرضِ. اهتزّت الشاحنة بعنف، وارتطمت بجذع

شجرة على جانب الطريق. ضربت رينات رأسها في الجزء الخلفيّ من المقصورة. بدأ العالم يدور، وسقط شيء فوقها وبدا كلّ شيء بعيدًا، وتلاشى صدى الصوت، وكأنّها سقطت في بئر.

عندما استعادت وعيها، كان كلّ شيء لا يزال كما هو.

كان شخصٌ مّا مستلقيًا فوقها،جاثمًا فوقها ويمنعها من التنفس، لكن لم يكن هناك ما يؤلمها حقًّا، ربَّما فقط الجزء العلويّ من رأسها، على الرغم من طعم الدم المالح في فمها.

حاولت الفتاة التحرّك، وتمكّنت بطريقة مّا من تحرير ذراعها التي كانت مخدّرة. استجمعت كلّ قوّتها، ودفعت الجسد الملقى فوقها وزحفت من تحتهِ. لقد كان الشفق بالفعل، والظلمة تحكمُ قبضتها على العالم بسرعة. يبدو أنّ كلّ شيء حدث بهذه السرعة. كان الكثير من الرجال ممدّدين في الشاحنة، وجميعهم موتى. تبيّن أنّ الشخص الذي سقط على رينات هو ميكيتا. وقفت ورأت أنّ الرجال الآخرين قد ماتوا أيضًا، مستلقين على الطريق أو على حافّة الهاوية في أوضاع غريبة. لقد واجهت الموت أكثر من مرّة خلال هذا العام الرهيب، لكن هذه المرة بدا الأمر أكثر فظاعة، ربّما لأنّ رؤوس الأشجار كانت تحترق كما لو كانت الرياح مذنبة أيضًا. ارتجفت ساقاها، صعدت رينات فوق جانب المقصورة على سلّم صغير وقفزت إلى أسفل. تجوّلت حول الشاحنة ورأت السائق بوليسلافاس يتدلّى من القُمرة. لا شكّ أنّه فتح الباب في محاولة للهرب. كانت رينات تمسح شفتيها بيدها، ورأت اللون الأحمر في

كفّها. لكنّها لم تكن تعاني من أيّ ألمٍ، فمن أين أتى هذا الدم؟ أدركت الفتاة حينها أنّه لم يكن دمها، بل دم ميكيتا. بدا غريبًا بالنسبة إلى رينات أنّ مذاق دمها مثل دم شخص آخر، لكنّها مازالت تشعر بالغثيان. جلست في حفرة حتّى زوال الغثيان، ثمّ غسلت يديها ووجهها بالثلج الذائب. أنعشها الماء البارد. نهضت رينات وبدت تسير في منتصف الطريق. تسلّقت شجرة التنّوب التي قطعها الثوّار واستمرّت، ولم تنظر إلى الوراء ولو مرّةً واحدةً.

سرعان ما وصلت إلى حافّة الغابة؛ إمّا أنّها لم تكن كبيرة جدًّا، أو أنّ الثوار قد وضعوا الكمين أمام المكان الذي كان من المقرّر أن يخرج فيه الجنودُ من الأشجار. كان اليوم يقترب من نهايته. غمر العالم بالأزرق السّماويّ، بينما كانَ الضّبابُ يتصاعد على حافّة الغابة. استمرّت رينات في المشي، دون أن تعرف إلى أين يجب أن تذهب أو ما الذي ستجده حينَ تكملُ طريقها.

سمعت صوت محرّك، فركضت إلى جانب الطريق، واختبأت خلف بعض الأدغال وانتظرت. ظهرت درّاجة ناريّة سوداء ولامعة. اعتقدت رينات أنّ السائق هو الموت نفسه، تعالي لتري ما إذا كان أولئك الذين قُتلوا قد ماتوا حقًّا، لتري ما إذا كان هناك حتّى نفس حياة متبقّية فيهم. جاء الموت ليجمع الجثث. لم تستطع رينات البقاء هناك، ولم تستطع الاستمرار في السير على هذا الطريق، فركضت مباشرة إلى الضباب، عبر مرج ربيعيّ، مبتعدةً عنه قدر الإمكان.

لقد أتى الفجر أخيرًا. كان الضباب وكلّ ما حوله مغمورًا بضوء الصباح الباكر. كانت رينات قد عثرت على كومة قشّ قديمة في الليلة السابقة وثمّة شيءٌ بداخلها. كان حيوانًا، ربّما ثعلبًا أو غريرًا، قد أنشأ جحرًا في قاع كومة قشّ، وجعله جحرًا خاصًّا به.

جاء صقيع أثناء الليل. على الرغم من أنّ رينات كانت محظوظة للعثور على مثل هذا المكان الجيّد للاختباء أثناء ضياعها في أمسية ربيعيّة، فإنّها كانت لا تزال شديدة البرودة. شعرت أنّ قدميها صنعتا من الخشب، وكانت تخشى التحرّك، لتخاطر بتبديد الدفء القليل الذي شعرت به والعودة إلى هذا البرد الرهيب. بدأت عينا رينات تنغلقان فغفت مرّة أخرى؛ وهكذا نامت طوال الليل، ولم تستيقظ إلّا من حين إلى آخر قبل أن تسقط مرّة أخرى في حلم بارد كثيف. في الحلم، استطاعت رؤية الكلاب وهاينز، ورأت بوريس، لكنّها لم تستطع رؤية والدتها. بكت وتوسَّلت والدتها أن تُظهر نفسها. ظهر الجميع باستثناء والدتها. ثمّ حلمت بستاسّو. لسبب مّا، كانت ستاسّو جالسة على كومة من الحطب وتغنّي في حزنٍ، الأغنية نفسها التي كانت والدة رينات تحبّ أن تغنّيها. أرادت

رينات أن ترقص، لكنّها لم تستطع تحريك جسدها، فقد كانت ثقيلة كما لو أنّ ساقيها لا تطيعانها، وبدأت تبكي من العجز.

أخيرًا، هزمَ الصّباح الليل فنهضت رينات مرّة أخرى. في مكان مّا على مسافةٍ كان هناكَ طائرُ زرياب يغنيّ. قفزت الفتاة من كومة القشّ ورأت الآن أنّ هناك مزرعة على بعد مائة متر فقط، ولكن يبدو أنّها احترقت منذ أشهرٍ عديدةٍ، كلّ المباني، كلّ شيء، كلُّ ما تبقّى هو المدخنة التي تلتصق بها السماء. المدخنة وكومة من القشّ القديم، لا أكثر. كم هو غريب أنّ التبن لم يحترق، هكذا فكّرت رينات.

كانت الفتاة باردة ومتجمّدة. حاولت الإحماء، لتحريك ساقيها المخدّرتين، لكن بدأ رأسها في الدّوران.

أدركت رينات شيئًا واحدًا فقط، كان عليها أن تستمرّ. وهكذا انطلقت.

مضت عبر تلكَ المساحات التي لا نهاية لها.

مشت رينات فترةً طويلةً وهيَ تتأرجحُ من جانب إلى آخر. بدأت تعدّ خطواتها، لتتلو الصلاة الوحيدة التي عرفتها: «أبانا الذي في السماء...».

ثمّ انفصلت الغيوم بشكل غير متوقّع، وأضاءت الشمس عليها مثل مطرقة ذهبيّة ثمّ سقطت لتضرب الأرض، وتملأ الهواء بالأصوات؛ رينات يمكن أن تسمع الطيور تغنّي. كان الأمر كما لو

أنّ غطاء الليل قد تمزّق، ودفع البرد بعيدًا.

سارت رينات على صوت قبّرة تغنّي وهي تحوم في السماء.

لم تعد باردة. بدت رحلة الأمس في شاحنة الجنود وكأنّها حلم. جثث الرجال، جزء من قصّة خرافيّة سمعتها ذات مرّة.

أدركت رينات فجأة أنّها لم تر الشمس لفترة طويلة إلى درجة أنّها نسيت أنّها كانت قد أشرقت من قبل. كان عالمها الصغير ممتلئًا بالغيوم والضباب والثلج فقط. لكن الآن تغيّر شيء مّا.

ثمّ، كما لو كان من العدم، كما لو كان من بقايا الضباب، من الفراغ، ظهر حصان صغير. هزّ رأسه الكبير، لبدة صفراء طويلة، نجمة على جبينه. كان الحصان يجرّ عربة، والعجلات تصرخ وتدور بسرعة كبيرة.

«يا بنيّتي، إلى أين أنت ذاهبة بمفردك، في وقت مبكّر من الصباح؟» سألت المرأة التي في العربة رينات مبتسمةً.

أجابت الفتاة الليتوانيّة: «اسمي **ماريتا**».

ضحك الرجل الذي كان يمسك باللّجامِ ضحكة مدوّية، وأظهر أسنانه البيضاء المتساوية. «من الجيّد أن يكون اسمك **ماريتا**، لكن إلى أين أنت ذاهبة؟».

قالت رينات، مثل **ماريتا**: «أنا كاثوليكيّة».

«هللويا» قالت المرأة وهي لا تزال تبتسم. «نحن أيضًا كاثوليك،

ونحن في طريقنا إلى الكنيسة».

لم تقل رينات شيئًا، فقط حدّقت فيهما بعينين متجمّدتين.

«علينا أن نذهب إلى الكنيسة اليوم، المسيح قام مرّة أخرى في هذا اليوم».

قال الرجل: «اركبي العربة».

سألت المرأة: «أين والدتك؟».

أجابت ماريتا: «في كاوناس».

لم يسألاها أيّ أسئلة أخرى، فقد اعتادا على جميع أنواع المسافرين. كان الكثير من الأيتام يتجوّلون من قرية إلى قرية من مدينة إلى أخرى: أطفال روس وألمان وليتوانيّون أيضًا. فتّشت المرأة في حقيبتها المصنوعة من الكتان، وأخذت كعكة ملفوفة في منديل وقدّمت شريحة كبيرة للفتاة، دون أن تسأل عمّا إذا كانت جائعة. كانت الكعكة تحتوي على جبن قريش وقرفة، بدت رائحتها لذيذة جدًّا.

كانت ماريتا تسافر عبر حقول الربيع اللامعة، يجتذبها الحصان الصغير المرح، وذيله اللّامع يتأرجح من جانبٍ إلى آخر. كانت الشمس تدفئ الأرض فاختفى الضباب. كانت الشمس تدفئ الفتاة أيضًا، وبدأت تغفو، وعيناها تنغلقان، كما لو كانت جفونها ثقيلة جدًّا.

قالت المرأة: «استلقي قليلًا على القشّ، ماريتا، أستطيع أن أرى عينيك تنغلقان».

استلقت ماريتا على القشِّ الذهبيّ. غطّت المرأة ساقيها ببطّانية حصان وشعرت ماريتا براحة شديدة. كسر الرجل سوطه وهرع الحصان الصغير بسرعة كبيرة. أخيرًا، شعرت الفتاة بالهدوء حقًّا في الداخل، ونامت.

قالت المرأة لزوجها: «ربّما تكون الفتاة مريضة. يمكنك أن ترى أنّها لم تنم بما يكفي».

حلمت ماريتا بمرج ضخم حيث نبتت كعكات من الأرض مثل الفطر.

صاح الرجل: «توقّف». توقف الحصان واستيقظت رينات.

كانت الشمس قد سارت بعيدًا عبر السماء، ووصلت العربة إلى ضواحي المدينة.

شاهدت رينات الزوجين يغيّران أحذيتهما؛ عليك أن تذهبي إلى الكنيسة في أفضل حالاتك يوم الأحد. أخفوا أحذيتهم اليومية تحت القشّ.

ابتسمت المرأة للفتاة وأخذت بيضة حمراء من سلّتها. كانت بيضة عيد الفصح، مزيّنة بصلبان وخطوط.

قالت المرأة: «خذيها. يمكنك أخذها إلى الكنيسة، وسوف

يباركها الكاهن وستحصل على بيضة عيد الفصح المباركة».

قال رينات: «شكرًا لك».

كانت الكنيسة لا تزال على مسافة قصيرة من الطريق. كان الناس يتدفّقون عبر بوّابات فناء الكنيسة؛ تُركت عربات عديدة بالخارج وكانت الخيول،مقيَّدة، تشخر وتنطلق وهي تخدش الأرض. وقادت الأمّهات أطفالهنّ من أيديهم، وخلع الرجال قبّعاتهم أثناء سيرهم عبر البوّابات.

ربط الرجل الذي أحضر ماريتا حصانه في مكانٍ ليس بعيدًا عن جدار باحة الكنيسة.

انتظرته المرأة، وضبطت وشاحها، وأخذت منديلًا من حقيبة يدها ووضعته في جعبتها.

كانت رينات تحمل بيضة عيد الفصح في يدها، غير متأكّدة ممّا يجب فعله بعد ذلك. كانت تودّ الذهاب مع الزوجين، وكانت تودّ أن تسأل عمّا إذا كان يمكنها البقاء معهم، وستكون جيّدة معهم، وستقوم بأيّ عمل تُكلَّف به، ولن تكون عبئًا. لكنّ المرأة قالت وداعًا وغمز الرجل في وجهها، غمزة مرحة، بل حتّى مؤذية، ابقي على ما يرام، يا طفلتي. وقبل أن تقول رينات أيّ شيء، انضمّ الزوجان إلى تيّار من الناس المسرعين إلى الكنيسة.

ذهبت الفتاة إلى جدار باحة الكنيسة. عندما تأكّدت من أنّ الزوجين لم يعد بإمكانهما رؤيتها، أكلت البيضة بشراهة وألقت قشر

البيض الأحمر على الأرض.

سارت على طول الجدار وتوقَّفت عند البوّابات الجانبيّة.

بدأت أجراس الكنيسة تقرعُ في السماء وحلّقت الطيور في الأعلى.

انفتح الباب على مصراعيه وظهر موكب مهيب.

كانت رينات مفتونة بفساتين البنات البيضاء، وبالكهنة الذين يمشون تحت المظلّة، وتمثال السيّدة العذراء الذي يحمله رجال الدين، والمغنّيات.

لقد وجدت كلّ شيء جميلًا جدًّا، لكنّها لم تجرؤ على الاقتراب أكثر من ذلك. كانت حزينة، وتأسّفت لأنّها أكلت بيضة عيد الفصح.

ارتجفت رينات من البرد، رغمَ أنَّ الشمس كانت دافئة جدًّا ويبدو أنّ الربيع يتحرّرُ من سطوة القَدَرِ الذي كان محاصرًا فيه بفعل الشتاء. سارت الفتاة على طول جدار باحة الكنيسة ولاحظت المتسوّلين يجلسون بجانب البوّابات ويصطفّون على الممرّات المؤدّية إلى الكنيسة. بدأ رأس رينات يدور، وجلست على حجر ضخم. جلست تراقب الطيور وهي تلتقط ريشها في دفء الشمس. شعرت بأنّها مثقلة بإرهاق شديدٍ، وبدا لها العالم كما لو كان من خلال ضباب. لم ترغب رينات في النوم، فذهبت للبحث عن عربة الزوجين اللذين أحضراها إلى هنا، لكنّها لم تتمكن من العثور عليها. سارت وسارت، طافت حول الكنيسة، واعتقدت أنّها تعرّفت على البقعة تحت بعض أشجار الزيزفون الطويلة حيث قُيِّد الحصان الصغير ذو اللون الفاتح، ولكن كان هناك الكثير من العربات، ولم تستطع رؤية الحصان. انتظرت الفتاة، لكن سرعان ما اتّضح أنّها لن تجدهما، الشّخصين الطيبين الذين أرادت البقاء معهما.

بدأ اليوم في التّلاشي. الناس يتدفّقون من الكنيسة فُرادى أو

جماعات. بدأت الخيول، التي كانت نائمة من الحرّ. انطلقت العربات نحو المنزل، مليئة بالناس المبتهجين والمرحين الذين كانوا يرتدون أفضل ما لديهم يوم الأحد، كلّ منهم يأخذ معه أمل الفتاة فى أن تلتقى بالزوجين اللطفاء مرّة أخرى.

أُفرِغت باحة الكنيسة؛ حتّى المتسولون عادوا من حيث أتوا. كانت قطع من القشّ تهبّ في الهواء مع الريح، وكانت الغربان تنعق أثناء بحثها في روث الحصان.

تُركت رينات بمفردها. شعرت بالحزن والوحدة، وكانت تودّ أن تبكي، لكنها بدلًا من ذلك شعرت بأنّها تنزُّ عرقًا.

جلست الفتاة على حجر آخر دافئ من الشمس، وفتحت حجابها وشعرت بالريح تلامس شعرها. أغمضت عينيها وجلست هناك نائمة تقريبًا.

لم تستطع رينات تحديد مقدار الوقت الذي مرَّ، ولكن في النهاية، عند سماع الأصوات، رفعت رأسها مرّة أخرى. كانت هناك عائلة تمشي، رجل أنيق يرتدي قبّعة وسترة فاتحة اللون، وامرأة طويلة نحيلة ذات شعر أشقر مجعّد مزيّنة برباط رأس بزهور صناعيّة صغيرة. يا لها من امرأة جميلة جدًّا، فكّرت رينات.

كانت المرأة تحمل صبيًا صغيرًا بيدها. أشار الصبيّ إلى رينات وتبادلا بضع كلمات. بدا وكأنّ الرجل يوبّخ الصبيّ بلطفٍ. ثمّ توقّفوا، وركض الصبيّ إلى رينات وحمل بيضة عيد الفصح.

قال الطفل: «من فضلك خذيها. إنّها بيضة مباركة».

أخذت الفتاة الهديّة من الصبيّ، الذي انتقل إلى عائلته، إلى والدته وأبيه.

حدَّقت رينات في بيضة عيد الفصح في يدها ولم تستطع تصديق الأمر، كانت باللون الأحمر نفسه الذي كانت تأكله بلا مبالاة، ومزيّنة بالصلبان والخطوط الصغيرة نفسها. يجب أن تكون هي نفسها، البيضة نفسها. بدأ قلب الفتاة ينبض بالعاطفة. كانت تودّ أن تقول شيئًا لهؤلاء الأشخاص، لكنّهم اختفوا. كل ما تبقّى هو الشمس والغبار والطيور.

كانت رينات تتجوّل بلا هدف على طول شوارع مدينة غير مألوفة. تدفّقت أصوات البهجةِ من النوافذ المفتوحة للكثير من المنازل: كان الناس يحتفلون بهذا الأحد المعجزة، على ما يبدو لم يهتمّوا بما تركتهُ الحربُ من نقصٍ أو بالاحتلال الجديد، الذي لم تعرف الفتاة شيئًا عنه على الإطلاق. أصبحت الشمس أكثر احمرارًا، وأشعّتها أكثر برودة. كان المساء يتقدّم بسرعة أكبر، وكانت الرياح الباردة بمثابة تذكير بالشتاء.

وجدت رينات منزلًا مدمَّرًا، دُمِّرَ معظم سقفه، وتناثر على بعض الألواح الخشبيّة في الزاوية الأبعد.

حلَّ اللَّيلُ، مظلمًا وباردًا.

نبحت الكلاب في مكان قريب من الشارع، تلتها صيحات. كانت الفتاة خائفة. انكمشت في الزاوية، كانت باردة، كانت ترتجف، لكنّها لا تزال هنا أفضل من الخارج؛ على الأقلّ لم تستطع الريح أن تصل إليها. كانت تمسك ببيضة عيد الفصح بكلتا يديها، وبدا أنّها تدفّئها قليلًا. كانت رينات جائعة، لكنّها لم تكن لديها أدنى نيّة لتناول تلك البيضة الحمراء. أحضر الليل اللّامتناهي معه

بعض الذِّكريات، كانت تمشي عبر الغابة مرّة أخرى، ورأت بعض الجنود يضربون العمّة لوت، ثمّ كان أنتاناس هناك بذراعه يقطع الحطب، وكانت تعطيه الخشب ليقطعهُ.

كان الوقت مبكّرًا عندما غادرت رينات المنزل المدمّر. نظرت في الشارع وبدأت تمشي، بلا وجهة. كانت ساقاها ثقيلتين، وجفونها أثقل، لكنّها سارت طويلًا في البلدة التي بدأت تستيقظ. بدأت تدفأ تدريجيًّا قليلًا في ضوءِ الشمس الساطع، لكنَّها كانت مصابة بالحمّى، وكان رأسها يدور والعرق يتصبّبُ على وجهها.

فجأة سمعت موسيقى جميلة، وظنت أنَّها مازالت تحلم. شخص مّا كان يعزفُ معزوفة غنوسيان 5 لإريك ساتي، لكن لم تكن كما كانت عندما عزفتها والدتها. كان هذا الشخص يضغط على المفاتيح بقوَّةٍ أكبر، كما لو أنّه يحاول قطعها. كان الخوفُ يسيطرُ على رينات وهيَ تقتربُ من الصوت.

ارتفعت الموسيقى أكثرَ.

أخيرًا، وجدت رينات المكان الذي أتت منه الموسيقى. كانت تقف في شارع فارغ بجوار جدار متضرّر، ورأت أمامها منزلًا بنوافذَ مفتوحة على الرَّبيع والشمس. خلف النوافذ، في غرفة ذات إضاءة زاهية، كانت الفتيات يرقصن، راقصات باليه صغيرات. رأت رينات البيانو، وامرأة بدينة تجلس عليه، وبجانبها امرأة أنيقة طويلة القامة مع ربطة رأس في شعرها.

حدّقت رينات في هذا العالم المعجزة، غير قادرة على حذفهِ من عينيها.

انتهت الرقصة، وهتفت الفتيات وبدأن في سؤال المرأة، التي كانت معلّمة الرقص، عن شيء ممّا. ضحكت، ويبدو أنّها وافقت على طلبهنَّ. ثمّ فجأة، اندفعت راقصات الباليه في الشارع، وهنَّ يحملنَ بيضًا ملوَّنًا بألوان مختلفة.

ذهبت معهم المعلّمة والمرافقة، حاملات بعض بيض عيد الفصح الخاصّ بهنّ.

ضحكت الفتيات عندما بدأن في لفّ البيض.

امتلأت عينا رينات بالدموع وطفت على وجهها. تبلّل خدّاها بالدموع - أو ربّما كان العرق - وكانت ترتجف بعنف. تقدّمت خطوة إلى الأمام، ثمّ خطوة أخرى، وأخذت البيضة الملوّنة التي أعطاها إيّاها الصبيّ الصغير من جيبها.

رأت المرأة رينات فبدا العالمُ رتيبًا ويقتربُ شيئًا فشيئًا إلى نقطة النّهاية. أدركت الفتاة أنّه قد لا يكون لديها وقت كافٍ، وأنّ عليها أن تقول شيئًا بسرعة؛ قدّمت بيضة عيد الفصح الحمراء للمرأة الجميلة، التي جاءت إليها وانحنت وابتسمت وسألتها عن شيءٍ.

قالت رينات: «اسمي **ماريتا**»، وأخذت المرأة البيضة المباركة من يد الفتاة.

سقطت ماريتا في بئر سوداء عميقة، لكنّها لم تشعر بالخوف.

لم تكن المرأة قادرة على الإمساك بالفتاة في الوقت المناسب، إذ فقدت وعيها وسقطت في الشارع المغبَّر.

احتشدت راقصات الباليه الصغيرات حولها في خوفٍ: «هل ماتت؟ هل ماتت؟».

قالت معلمتهنَّ: «لا، إنّها على قيد الحياة». رفعت رينات وحملتها إلى المنزل.

تبعهما العازفُ المرافق وراقصات الباليه إلى الداخل.

آلفيداس سليبيكاس

اسمي ماريتا

لـو كانـت ثمّـة روايـة تختصرُ طفولتنا جميعًـا، لكانـت هـذه الرّوايـة، ولـو كانـت ثمّـة محاكمـةٌ جماعيّـة لهـذه البشريّـة لكانـت هـذه الرّوايـة نـصُّ المحاكمـة وشـهادة الإدانـة المرفوعـة في وجـهِ الإنسـانِ الـذي سـطّرَ تاريخـهُ البشريَّ بالدّمـاء والجماجـمِ الآدميّـةِ. بعـدَ نهايـة الحـربِ العالميّـة الثانيـة، تتوقّـفُ رحـى الحـرب وتحـلُّ محلهـا رحـى الجـوع والـصّراع مـن أجـلِ البقـاء عـلى قيـد الحيـاة، في بيئـةٍ يكسـوها بيـاض الثّلـوجُ وعتمـة الـبرد وقضـمات العطـشِ. هـذا العمـلُ مكتـوب بشـعريّة عاليـة، لا تُفسـد عمليّـة السّـرد بـل تكملـهُ وتضفـي عليـهِ ذلـكَ الجانـب الإنسـاني الـذي لا تحرّكـهُ إلا روحُ الشّـاعر وصورتـهُ في الأشـياء المهملـة.

اسـتطاع آلفيـداس سـليبيكاس بهـذه الرّوايـة أن يدفـعَ بالرّوايـة اللّيتوانيّـة إلى العالميّـة، فترجمـت إلى أكثـر مـن عشريـن لغـة وتصدّرت قائمـة أكثـر الكتـب مبيعًـا في العـالم إضافـة إلى فوزهـا بجائـزة كتـاب العـام وهـي أرفـع جائـزةٍ أدبيّـة في ليتوانيـا.

النّاشر

ISBN:978-603-91594-6-9
9786039159469
WWW.PAGE-7.COM